

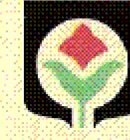
ألكسندر بوشكين

إبنة الضابط

ترجمة: سامي الدروبي

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

المركز الثقافي العربي



ألكسندر بوشكين

إبنة الضابط

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

ألكسندر بوشكين، أمير شعراء روسيا، كان متأثراً بالآداب الشرقية، وقد ظهر هذا التأثير في أشعاره وكتاباته. وهو في هذه الرواية التي تصوّر حياة القوزاق، يقدّم لنا صورة عن حياة هؤلاء الذين ينعكس في شخصيتهم الجمال الوحشي والقاسي للطبيعة حيث يعيشون. في مقابل حياة البذخ التي يعيشها النبلاء الروس.

في جو من الحروب والتمردات تدور أحداث هذه الرواية التي يعيش بطلها الضابط بترو أندرفتش على حافة الموت كل لحظة، ولكنه يندفع في مغامرات هوجاء مدفوعاً بروح إنسانية، وبحبّ تختلط فيه العاطفة تجاه حبيبته، بالمسؤولية عن فتاة قُتِل والديها على نحو مفجع، ونغّص عليها حياتها ضابط انتقل إلى صفوف المتمردين وراح يسعى وراءها.

تقدّم لنا هذه الرواية صورة عن مرحلة من تاريخ روسيا، إضافة إلى تصوير شاعري للطبيعة ولطبائع الناس.

ISBN 978-9953-68-406-5
9 789953 684062

المركز الثقافي العربي
cca@ccaedition.com



ألكسندر بوشكين

ولد ألكسندر بوشكين عام 1799 في أسرة من النبلاء. وهو يعدّ من أعظم الشعراء الروس، ولُقِّب بأمير الشعراء.

كان بوشكين شاعراً ثورياً دعا إلى الحد من سلطة النبلاء في روسيا، وعبّر عن نقمته على الديكتاتورية داعياً إلى تقييد الحكم القيصري لصالح قيام نظام ديمقراطي.

تعتبر الفترة التي عاشها بوشكين فترة العصر الذهبي للشعر الروسي، وعلى الرغم من أن بوشكين عاش عمراً قصيراً، إذ توفي عام 1837، فقد ترك الكثير من الآثار الأدبية التي ألهمت معظم الكتّاب الروس الذين جاؤوا من بعده، ونرى حضوره في أعمال كبار الكتاب الروس من أمثال دوستويفسكي وتولستوي.. وغيرهم

من أشهر مؤلفاته: زنجي بطرس الأكبر - أسير القفقاس- الفارس النحاسي - التراجيديات الصغيرة...

ألكسندر بوشكين

إبنة الضابط

ألكسندر بوشكين

إبنة الضابط

ترجمة: سامي الدروبي


مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION


المركز الثقافي العربي

الكتاب: **ابنة الضابط (رواية)**

المؤلف: **ألكسندر بوشكين**

المترجم: **سامي الدروبي**

الطبعة الأولى، تموز/ يوليو 2009

ISBN 978-9953-68-406-5

يُنشر هذا الكتاب بموجب عقد مع مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم



مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION
tarjem@mbrfoundation.ae
www.mbrfoundation.ae

الناشر: المركز الثقافي العربي

بيروت والدار البيضاء

بيروت ــ لبنان

ص.ب. 5158 ـ 113 الحمرا

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01352826 ـ 01750507

فاكس: 01343701 ـ 961+

الدار البيضاء ــ المغرب

ص.ب.: 4006 (سيدنا)

42 شارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 522303339 ـ 522307651

فاكس: 2305726 522 212+

www.ccaedition.com cca@ccaedition.com Email: markaz@wanadoo.nit.ma

رسالة مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

عزيزي القارئ،

إن كان الحلم في حد ذاته أمراً مشروعاً، فإن الأكثر إلحاحاً في ظل التحديات التي تواجه واقعنا العربي، هو العمل على تحويل الحلم إلى مشروع حقيقي على الأرض. وإذا كان العصر الذي نعيش فيه يتسم بالمعرفة والمعلوماتية والانفتاح على الآخر، فإن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم ترى إلى الترجمة باعتبارها جسراً لاستيعاب المعارف العالمية واللحاق بالعصر.

لقد عبّر صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي عن مدى الحاجة للتعامل العاجل مع مقتضيات العصر عندما قال: «إن أهم ما في الاقتصاد الجديد هو الفكرة التي تنفّذ في وقتها». وعليه فإن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم تعتقد بحزم أن إحياء حركة الترجمة العربية، وجعلها محركاً فاعلاً من محركات التنمية واقتصاد المعرفة في الوطن العربي، هي فكرة حان وقتها، ولا يجوز تأخيرها.

فمتوسط ما تترجمه المؤسسات الثقافية ودور النشر العربية مجتمعة لا يتعدى كتاباً واحداً لكل مليون شخص في العام الواحد، بينما تنتج دول منفردة في العالم من حولنا أضعاف هذا الرقم.

في ظل هذه المعطيات أطلقت المؤسسة برنامج «ترجم»، بهدف إثراء المكتبة العربية بأفضل ما قدّمه الفكر العالمي من معارف وعلوم، عبر ترجمة تلك الأعمال إلى العربية. ومن أهداف البرنامج أيضاً العمل على إبراز الوجه الحضاري للأمة عبر ترجمة الإبداعات العربية إلى لغات العالم.

ومن التباشير الأولى لهذا البرنامج إطلاق خطة لترجمة ألف كتاب من

اللغات العالمية إلى اللغة العربية في خلال ثلاث سنوات، أي بمعدل كتاب في اليوم الواحد. وما الكتاب الذي بين يديك، عزيزي القارئ، إلا دفقة في نهر معرفي نأمل أن يجري غزيراً ليروي الظمأ، ويسقي بساتين النهضة العلمية، وصولاً إلى التنمية الشاملة في الوطن العربي.

إن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم على ثقة بأن هذا الكتاب سيكون بمثابة خطوة إلى الأمام في سبيل تحقيق رسالتها الكلية، المتمثلة في تمكين الأجيال المقبلة من ابتكار وتطوير حلول مستدامة لمواجهة التحديات، عن طريق نشر المعرفة، ورعاية الأفكار النيّرة التي تقود إلى إبداعات حقيقية، بالإضافة إلى بناء جسور الحوار بين الشعوب والحضارات.

للمزيد من المعلومات عن برنامج «ترجم» والبرامج الأخرى لمؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، يرجى زيارة الموقع الإلكتروني:
www.mbrfoundation.ae

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

عن المؤسسة:

انطلقت مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم بمبادرة شخصية من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، الذي خصص للمبادرة وقفاً قدره 37 مليار درهم (10 مليارات دولار). وجاء الإعلان عن تأسيسها في كلمة سموّه أمام المنتدى الاقتصادي العالمي في البحر الميت، الأردن في أيار/ مايو 2007.

تهدف مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم إلى تمكين الأجيال الشابة في الوطن العربي من امتلاك المعرفة وتوظيفها لمواجهة تحديات التنمية، وابتكار حلول مستدامة نابعة من الواقع المحلي، للتعامل مع المشكلات التي تواجه مجتمعاتهم. ولتحقيق هذا الهدف، حدد سموه ثلاثة قطاعات استراتيجية لعمل المؤسسة، وهذه القطاعات هي: المعرفة والتعليم، والثقافة، وريادة الأعمال وفرص العمل.

الفصل الأوّل

رقيب في الحرس

حافظ على شرفك منذ أيام صباك

«قول روسي مأثور»

كان أبي، آندره بتروفتش جرينيف، يعمل إبّان شبابه في الجيش تحت قيادة كونت مونيخ، وأُحيل إلى المعاش برتبة (ضابط أول ـ أركان حرب)، سنة ألف وسبعمائة و. . . وعاش منذ ذلك الحين في أرضه بسمبرسك حيث تزوج بأدفوتيا فاسيليفنا. . .، وهي إبنة سيد فقير من سكان المنطقة. وأنجب الزوجان عشر أولاد، إلا أن جميع إخوتي ماتوا في سن مبكرة. وكنت ما أزال في رحم أمي حين سُجّلت برتبة رقيب في فوج سميونوفسكي بمساعي الضابط الأمير ب. . .، أحد أقربائنا. ولو قد ولدت أمي بنتاً، على خلاف كل ما كان يُنتظر، لأعلن أبي للمراجع المختصة موت الرقيب «الذي لم يستجب الدعوة»، ولوقف الأمر عند هذا الحد. غير أنني ولدت صبياً. «ومنحت إجازة» إلى أن أنهي دراستي. وكنا في ذلك الوقت نُربّى تربية مختلفة كل الاختلاف عن تربية اليوم. عُهد بي منذ الخامسة من عمري إلى الخادم سافلتش الذي استحقّ لسلوكه الممتاز لقب «مربي» السيد الصغير. وبإشرافه إنما تعلّمت القراءة في الثانية

عشرة من عمري، وأصبحت قادراً على إبداء رأي وجيه في مزايا كلب سلوقي. وفي تلك الآونة استأجر لي أبي معلماً فرنسياً هو مسيو بوپريه، طلبه من موسكو كما طلب في الوقت نفسه مؤونة سنوية من الخمر وزيت الزيتون. واستاء سافلتش استياءً شديداً من وصول هذا المربي الجديد.

فكان يدمدم بينه وبين نفسه قائلاً: «أحسب أن الولد قد أُحسن تنظيفه وتلبيسه وإطعامه، فما الداعي إلى إنفاق المال في استئجار مسيو فرنسي... كأن ليس بيننا أكفاء!...».

كان بوپريه في بلاده حلاقاً، ثم عمل في بروسيا جندياً، وجاء أخيراً إلى روسيا ليكون «معلماً» دون أن يفهم معنى هذه الكلمة على وجه الدِّقَة. وآفته الكبرى ميله إلى الجنس اللطيف، وكثيراً ما اتفق أن قوبلت عواطفه بضربات، فإذا هو يظل يتوجع أياماً بكاملها. ثم إنه لم يكن «عدو الكأس» أبداً، كما كان يقول هو نفسه، ومعنى هذا في الروسية القحة أنه يسرف في الشراب، ولكن لما كان النبيذ لا يُقَدَّم في بيتنا إلا في وجبة الغداء، وكان لا يقدم للشخص إلا قدح واحد، وكان المربّي فوق ذلك ليس له منه في العادة نصيب، فإن صاحبي بوپريه سرعان ما تعود الأشربة الروسية، حتى أصبح يفضلها على خمور بلاده، لأنه يجدها مهضمة أكثر من خمور بلاده.

وقد سادت بيننا روح التفاهم فوراً، ورغم أن بنود الاتفاق تنص على أن عليه أن يعلمني «الفرنسية والألمانية وجميع أنواع العلوم»، فقد آثر أن يتعلّم مني بعض مبادىء الروسية، ثم شُغل كل منا بعد ذلك بشؤونه الخاصة. كنا نعيش صديقين، وما تمنيت أبداً أن يكون لي مربٌّ غيره. ولكن سرعان ما فرّق بيننا القدر، وإليكم كيف تم ذلك:

في ذات يوم قررت الغسَّالة بالاشكا، وهي بنت سمينة ذات وجه مجدور، وقررت معها راعية البقر العوراء أكولكا، أن ترتميا على قدمي أمي تعترفان لها بأن «المسيو» قد غرر بهما واستغل سذاجتهما فأوقعهما في الإثم، قالتا ذلك وهما تسكبان دموعاً غزيرة. كانت أمي لا تحب مثل هذا المزاح، فنقلت النبأ إلى أبي، وأبي لا يبطئ ولا يتلكأ في مثل هذه الحالات، فأمر بإحضار الفرنسي السافل على الفور، فلما قيل له إن «المسيو» مشغول بإعطائي درساً، جاء إلى غرفتي بنفسه. كان بوپريه في تلك اللحظة متكوّماً على سريره يغط في نوم عميق، وكنت أنا مشغولاً بأمر هام. يجب أن أذكر أنهم كانوا قد أحضروا لي من موسكو خريطة جغرافية، وكانت هذه الخريطة معلقة على الحائط دون أن تفيد في شيء البتة، وكان قد انقضى زمن طويل على افتتاني بجمال شكلها وجودة ورقها، فقررت أن أصنع منها طيارة، وانتهزت فرصة نوم بوپريه فشرعت في العمل، وقد دخل أبي لحظة كنت منهمكاً في تركيز ذنب الطائرة على رأس الرجاء الصالح.

فلما رآني منهمكاً إلى هذا الحد في تمارين جغرافية، شد أذني، ثم التفت إلى بوپريه يقرّعه ويؤنبه. وحاول بوپريه أن ينهض وقد ارتبك ارتباكاً شديداً، إلا أنه لم يستطع النهوض: لقد كان الفرنسي التعيس كالميت من شِدّة السكر، فشدّه أبي من تلابيبه وانتزعه من سريره ورماه على باب الغرفة، وطرده من البيت في ذلك اليوم نفسه، وسُرَّ سافلتش من ذلك أيما سرور، وكان هذا الحادث خاتمة «ثقافتي»، فعشت بعدئذ طفلاً مدللاً أصطاد الحمام وأسترسل في أنواع اللعب مع أبناء خدمنا، حتى بلغت نهاية سن السادسة عشرة من عمري، فطرأ على حياتي تغير هام:

في ذات يوم من أيام الخريف كانت أمي في الصالون تصنع معقود العسل، وكنت أنا أتلمّظ للرغوة الفائرة على سطح الوعاء، وكان أبي واقفاً إلى النافذة يتصفح «جريدة البلاط» وهي نشرة سنوية تصل إليه بانتظام. كان أبي يهتم بهذا الكتاب اهتماماً عظيماً، وكانت قراءة هذا الكتاب ذات قدرة عجيبة على إثارته. فكانت أمي، وقد حفظت عادات زوجها على ظهر القلب، تحاول أن تخفي هذا الكتاب المنحوس في أبعد مكان، فكان يظل الكتاب أشهراً برمتها لا يقع تحت بصر أبي، حتى إذا عثر به عرضاً ظل يقلبه ساعات طويلة. كان أبي يقرأ إذن هذا الكتاب في ذلك اليوم، فكان يهزّ كتفيه من حين إلى حين وهو يردد بصوت منخفض: «أيصبح هو لواءً، وقد كان في كتيبتي رقيباً!» وأخيراً رمى الكتاب على الديوان، وغرق في تأمل لا يبشّر بخير.

وفجأة التفت نحو أمي يسألها:

ـ أفدوتيا فاسيليفنا، ما عمر بتروشا؟

ـ دخل في السابعة عشرة. لقد وُلد سنة فقدت العمة ناستاسيا جراسيموفنا عينها، وسنة...

ـ حسناً... آن أوان التحاقه بالخدمة العسكرية. كفاه تسكعاً بالقرب من غرف الخادمات، وتسلقاً إلى أعشاش الحمام.

فلما تصورت أمي أنها ستنفصل عني في القريب، انفعلت انفعالاً شديداً؛ حتى لقد سقطت الملعقة من بين يديها في القدر، وسالت على خديها دموع غزيرة. أما أنا فلم أجد ما أعبّر به عن حماستي. لقد كانت فكرة الخدمة العسكرية متحدة في ذهني بفكرة الحرية وملذات العاصمة. وتصورت نفسي منذ الآن ضابطاً في الحرس، وكان ذلك في نظري غاية ما يطمع فيه إنسان من سعادة.

وأبي رجل لا يحب أن يبدل ما يعزم عليه من أمر، ولا أن يرجىء التنفيذ. فما هي إلا لحظات حتى حُدِّد يوم سفري، وقال لي أبي إنني سأحمل رسالة إلى رئيسي، وطلب أن يأتوه بقلم وورق.

قالت الأم:

ـ لا تنس أيضاً، يا آندره بتروفتش، أن تبلغ تحيتي إلى الأمير ب... وقل له إنني آمل أن لا يضن على بتروشا بعطفه وفضله.

فأجاب أبي مقطباً حاجبيه:

ـ ولكن علام أكتب للأمير ب...؟

ـ ألم تقل إنك ستكتب إلى رئيس بتروشا؟

ـ نعم.

ـ أليس الأمير ب رئيسه؟ أليس بتروشا مسجلاً في فوج سميرنوفسكي؟

ـ مسجل! وما قيمة التسجيل؟ إن بتروشا لن يذهب إلى سان بطرسبرج. ما عسى أن يتعلم هنالك؟ يبدد ماله ويرتكب الموبقات! كلا. يجب أن ينخرط في الجيش! يجب أن يتعلم الخدمة العسكرية، يجب أن يعرف ما هو البارود، وأن يصبح جندياً باسلاً، لا شاباً طائشاً! مسجلاً في الحرس!... أين جواز سفره، إئتني بجواز سفره!

جاءت أمي بجواز السفر، وكانت قد أودعته صندوقها مع القميص الذي كنت أرتديه يوم تعميدي، فمدّته إلى أبي بيد مرتجفة. قرأ أبي جواز السفر بانتباه، ثم وضعه على المنضدة أمامه، وبدأ كتابة رسالته. وتيقظ في نفسي حب الاستطلاع. تُرى أين يرسلونني إذا لم يرسلوني إلى سان بطرسبرج؟ ولم أحوّل بصري عن حركة القلم، وكان القلم لا يتحرك إلا ببطء...

وأخيراً فرغ أبي من الكتابة، فوضع الرسالة وجواز السفر كليهما في ظرف واحد، وختم الظرف، ثم نزع نظارتيه ودعاني إلى جانبه قائلاً:

ـ خذ هذه رسالة إلى آندره كارلوفتش...، صديقي القديم، ورفيقي في السلاح. ستمضي إلى أورنبورج، وتكون في إمرته.

هكذا خابت آمالي البراقة! لن أعيش إذن حياة مرحة في سان بطرسبرج، بل حياة كابية مملة في أعماق ركن بعيد من الريف. وبدت لي حياتي المقبلة التي كنت أحلم بها منذ دقيقة واحدة في حماسة عظيمة، بدت لي فاجعة حقيقية على حين غرة، إلا أن المناقشة لا محل لها مع أبي. وفي صباح اليوم التالي كانت تقف عربة الرحيل على باب البيت، وُضعت فيها حقيبتي، ووُضع فيها صندوق يضم أدوات الشاي، وصرراً محشوة بأقراص الفطائر، وكان ذلك آخر بادرة من بوادر دلال الأم. وباركني أبواي.

قال أبي:

ـ في رعاية الله يا بترو، وآمل أن تفيد في خدمتك أولئك الذين ستقسم لهم يمين الإخلاص. أطِع رؤساءك، ولكن لا تستجد عطفهم. لا تكن متهوراً، ولكن لا تتخلف عن القيام بالواجب، وتذكر المثل القائل: «على المرء أن يحتفظ بعفته وبشرفه منذ أيام صباه».

وبكت أمي بكاءً سخياً، وتوسلت إليّ أن أعتني بصحتي، وناشَدَتْ سافلتش أن يسهر على ولدها. ألبسوني فروة من جلد الأرنب، وألبسوني فوقها معطفاً من فراء الثعلب. وصعدت عربتي يتبعني سافلتش، وتركت المنزل الأبوي وأنا أذرف الدموع.

وصلت سمبرسك في الليلة نفسها، وكان علينا أن نمكث فيها

نهاراً بكامله نشتري ما نحن في حاجة إليه من أشياء كثيرة. نزلنا في أحد الفنادق وعهدت إلى سافلتش بشراء ما ينبغي شراؤه، فمضى منذ الصباح يتنقل بين الدكاكين. وسئمت النظر من خلال النافذة، وهي تشرف على ردب موحل، فأخذت أطوف بين الغرف، فلما وصلت إلى غرفة البليار، رأيت رجلاً في نحو الخامسة والثلاثين من عمره، ذا شارب طويل أسود، وهو يرتدي ثوب البيت، وفي فمه غليون، وبيده عصا البليار. وكان الرجل يلعب البليار مع العامل المولّج بالعدّ، فكان إذا غلبه العامل أمر له بقدح من الفودكا، وإذا غلب هو العامل حمله على أن يمرَّ تحت طاولة البليار على أربع قوائم. وقفت أشاهد اللعب. كانت نزهات العامل تحت الطاولة على أربع قوائم تكثر شيئاً بعد شيء، إلى أن ظل في آخر مرة تحت طاولة البليار، فصاح خصمه كأنما هو يرثيه، ثم اقترح عليَّ أن ألعب معه، فرفضت معلناً أنني أجهل هذه اللعبة، فبدا له ذلك عجيباً، وألقى عليَّ نظرة لمحت فيها الأسف، وانعقدت بيننا مع ذلك أواصر التعارف، فعلمت أنه يدعى إيفان إيفانوفتش زورين، وأنه كان ضابطاً في الفرسان، وأنه أتى إلى سمبرسك لحضور حفلة تجنيد، وأنه نزيل هذا الفندق نفسه، ثم دعاني إلى تناول طعام العشاء معه بلا كلفة على الطريقة العسكرية، فقبلت الدعوة شاكراً، وجلسنا إلى المائدة، فشرب كثيراً، وحملني على الإكثار، «ليعوّدني الخدمة» على حد تعبيره، وقصَّ عليّ أثناء ذلك من النوادر العسكرية ما ضحكت له حتى نفرت من عيني الدموع. ونهضنا عن المائدة على أحسن ما يكون صديقان وسرعان ما تبرع بتعليمي لعبة البليار. قال:

ـ إننا معشر العسكريين نحتاج حقاً إلى هذا. مثلاً. حين يكون أحدنا في الريف فيصل إلى قرية صغيرة، ما عساه يفعل؟ إننا لا

نستطيع أن ننفق كل وقتنا في اضطهاد اليهود! ولا بد أن يمضي أحدنا إلى الفندق، شاء أم أبى، فيلعب بعض الوقت، ولا بد إذن من معرفة اللعب.

وبدا لي هذا الكلام منطقياً، وانصرفت إلى الانتفاع «بتعليمه» باهتمام، فكان يشجعني بصوت مرتفع، وظهر عليه أنه في دهشة عظيمة من سرعتي في التعلم. واقترح عليَّ، بعد عدد من الدروس، أن نلعب متراهنين على بعض الكوبيكات، مهما تقل، لا في سبيل الربح، بل حتى لا نلعب على فراغ، لأن ذلك في رأيه من أسوأ العادات... وطلب زورين نوعاً من الشراب، وحملني على أن أذوقه، وكان لا يفتأ يردد أن عليّ أن أتعود الخدمة وأن الخدمة بلا شراب لا تجدي فتيلاً، وتحمست، وكانت جرأتي تزداد بازدياد عدد الأقداح التي أفرغها في جوفي، حتى أصبحت كراتي تقفز فوق حافة الطاولة قفزاً، وما هي إلا أن غضبت، فاتهمت العدَّاد بأنه لا يحسن العدَّ، وأنه يراكم أخطائي ساعة بعد ساعة. والخلاصة أنني تصرفت تصرف طفل ترك له الحبل على غاربه. وكانت الساعات أثناء ذلك تنقضي. وألقى زورين نظرة سريعة على الساعة، فوضع عصاه معلناً أنني قد خسرت مائة روبل. واضطربت لهذا غير قليل من الاضطراب، لأن فلوسي مع سافلتش، فأخذت أقدم له أعذاري، فلم يدعني أتم كلامي، بل قال:

ـ لا داعي إلى القلق. أستطيع أن أمهلك. هل تحب أن تأتي معي؟ يمكن أن أقدمك الآن إلى آرينوشكا.

استجبت لدعوته، وأنهيت النهار في حماقة وبلاهة كما بدأته. تمشينا عند آرينوشكا. وكان زورين ما ينفك يسكب لي قدحاً بعد قدح، وهو يردد أن عليّ أن «أتعود الخدمة»، وحين نهضنا عن

المائدة كنت لا أكاد أستطيع الوقوف من شدة السكر؛ وكان قد انتصف الليل حين أعادني زورين إلى الفندق.

استقبلنا سافلتش على الباب، وصرخ حين رآني على هذه الحال من الحماسة للخدمة، قال يتأوه:

ـ ماذا جرى لك يا سيدي؟ أين مضيت حتى عدت على هذه الحال؟ رباه! لم أشهد في حياتي منظراً كهذا المنظر!

ففأفأت أجيب:

ـ أسكت يا عجوز النحس. لعلك سكران. ضعني في السرير، واذهب إلى النوم.

وفي صباح اليوم التالي استيقظت من نومي وأنا أشعر بصداع هائل، ولا أكاد أتذكر حوادث البارحة. وقطع سافلتش تأملاتي وهو يحمل إلي فنجاناً من الشاي، قال يهز رأسه:

ـ لقد بكَّرت يا بترو أندرفتش. ما زلت أصغر سناً من أن تسترسل هذا الاسترسال. ثم من أين أتاك هذا؟ ما كان أبوك سكيراً، ولا كان جدك سكيراً، أما أمك فلا داعي إلى ذكرها هنا، فإنها لم تشرب في حياتها كلها غير عصير الفاكهة! ومن المسؤول عن هذا؟ إنه ذلك «المسيو» اللعين. كان لا ينفك يسرع إلى حانة آنتيفنا يقول: أرجوك، يا مدام، فودكا. هذا ما أوصلنا إليه ذلك المسيو الفرنسي. لقد علَّمك أشياء جميلة جداً، هذا الكلب ابن الكلب... كأنما كنا في حاجة إلى أن يربيك رجل هرطيق! كأن لم يكن في البيت ما يكفي من ناس عقلاء.

شعرت بالخجل والعار. فأشحت وجهي قائلاً:

ـ إذهب يا سافلتش، لست في حاجة إلى شاي.

ولكن سافلتش إن استرسل في مواعظه كان يستحيل وقفه، فاستمر يقول:

ـ هل رأيت الآن يا بترو أندرفتش ما نتيجة الشراب؟ يثقل الرأس ويفقد شهوة الطعام. إن الرجل الذي يشرب لا يصلح لشيء... هل تحب أن آتيك بقدح من حساء الخيار مع العسل؟ الأفضل مع ذلك أن تحتسي نصف قدح من شراب قوي... هل تريد؟

في هذه اللحظة، دخل خادم شاب يحمل إليَّ بطاقة من زورين: ففضضت البطاقة وقرأت فيها ما يلي:

«صديقي العزيز بترو أندريفتش، أرجو أن ترسل إلي مع الخادم المائة الروبل التي خسرتها أمس في اللعب. إنني في حاجة ماسة إليها!

المخلص: «إيفان زورين».

لا مفرَّ. اصطنعت هيئة من لا يبالي، واتجهت إلى سافلتش الذي كان «مكلفاً» بمالي وثيابي وأشيائي، فأمرته أن ينقد الخادم مائة روبل.

فسأل سافلتش وقد صعق من شدة الدهشة:

ـ لماذا؟ لأي غرض؟

ـ إنني مدين له بهذا المبلغ.

قلت ذلك في أكبر هدوء ممكن، فردد سافلتش يقول وقد ازداد اضطرابه:

ـ مدين له بهذا المبلغ؟ ولكن هل اتسع وقتك حتى الآن للإستدانة؟ يبدو لي أن في هذا الأمر شيئاً عجيباً! على أنني لن أدفع المال في أي حال!

شعرت أنني إن لم أُخضع هذا العجوز في هذه اللحظة، فسيتعذر عليَّ أن أتحرر من وصايته فيما بعد. فرميته بنظرة شامخة قائلاً:

ـ أنا سيدك، وأنت خادمي، والمال مالي! وقد خسرته لأن ذلك قد حلا لي. أما أنت فأنصحك بأن لا تتحذلق، وبأن تطيع ما يلقى إليك من أوامر.

وبلغ سافلتش من شدة الدهشة لكلماتي أنه لم يجد ما يجيب به غير تكتيف يديه.

صحت قائلاً في لهجة من فرغ صبره:

ـ ماذا تنتظر؟

فأخذ سافلتش يبكي. ثم قال بصوت مرتجف:

ـ باتوشكا بترو آندريفتش، لا تُمتني غماً وكرباً! يا قلبي العزيز، أطع مربيك القديم. أكتب إلى هذا اللص أنك كنت هازلاً غير جاد، وأننا لا نحمل مثل هذا المبلغ. مائة روبل! يا إلهي!... قل له إن أبويك قد حظرا عليك حظراً مطلقاً أن تلعب على غير حبات من البندق.

قلت في قسوة:

ـ كفى ثرثرة. هات المال، وإلا طردتك بضرباتٍ من نعلي.

فألقى عليّ سافلتش نظرة تفيض بالحزن، ومضى يأتي بالمال.

كنت أشفق على هذا الرجل المسكين، إلا أنني كنت أريد أن أستقل، وأن أشعر بأنني لست طفلاً. وأُعطي زورين المال. وسارع سافلتش فأخرجني من هذا الفندق الذي جرَّ عليّ الويل. ثم أتى يبلغني أن الخيل معدَّة. تركت سمبرسك وفي ضميري عذاب ثقيل وندامة خرساء، ولم أودّع «معلمي» زورين، ولا دار في خُلدي أنني سأراه مرة أخرى في يوم من الأيام.

الفصل الثاني

الدليل

إيه أيها البلد المجهول، ما جئت إلى هنا طوعاً، ما
قادني إليك جوادي الكريم، وإنما هي حماستي،
وبأسي، وشجاعتي وميلي إلى خمور الحانات...

«أغنية قديمة»

استغرقت خلال هذه السفرة الثانية في تأملات مؤلمة. إن المبلغ الذي فقدته مبلغ ضخم، إذا نحن نظرنا بعين الاعتبار إلى أسعار الأشياء في ذلك الوقت. كنت لا أستطيع إلا أن أدرك أن سلوكي في الفندق كان سلوكاً أبله على أقل تقدير. وشعرت أنني مخطئ في حق سافلتش. كان ذلك كله يعذّبني. وظلّ المسكين ساكناً لا يتحرك، وقد ظهر في وجهه الحزن والأسف، من دون أن ينظر إليَّ، ومن دون أن يخاطبني بكلمة واحدة. كنت أريد أن أصالحه حقاً، ولكنني لا أعرف كيف أسلك السبيل إلى مصالحته. قلت له أخيراً:

ـ إسمع يا سافلتش. يكفي هذا الآن... لنتصالح. أدرك الآن أنني مخطيء. لقد ارتكبت بالأمس حماقات، واليوم أغلظت لك القول دون ما سبب. أعدك بأن أحسّن سلوكي في المستقبل، وأن

أطيعك في كل أمر. هيّا هيّا، لا تغضب، لنتصالح!

فأجاب وهو يطلق من صدره زفرة عميقة:

ـ آه يا باتوشكا بترو آندرفتش، إنني لا ألوم إلا نفسي، أنا المذنب. كيف أمكن أن أتركك وحدك في الفندق؟ إن الشيطان قد أغواني! أردت أن أزور امرأة خادم الكنيسة التي كانت إشبينتي... ما أشقاني! كيف أمثُل بين يدي سيديّ؟ ما عسى أن يقولا عني إذا عرفا أن ابنهما يعاقر الخمرة ويقامر؟

وأردت أن أواسيه فقطعت له على نفسي عهداً أن لا أنفق بعد الآن فلساً واحداً (كوبك) دون موافقته. وهدأ روعه شيئاً بعد شيء، رغم أنه كان يهز رأسه من حين إلى حين وهو يدمدم بقوله: «مائة روبل!... الكلام سهل!...».

كنا نتقدم نحو محطّ الرحال: حقول حزينة مقفرة تخترقها هضاب وتخدّدها مجاري السيول، تمتد من حولنا حتى الأفق. إن الثلج يغطي كل شيء. والشمس تغرب. والعربة تسير في طريق ضيق، أو قل في ممر شقته عربة من عربات الفلاحين. وفجأة أخذ الحوذي يحدّق في نقطة من الأفق، ثم التفت إلي وقال وهو يرفع قبعته:

ـ ألا يأمرني سيدي بأن أعود أدراجي؟

ـ لماذا؟

ـ إن الجو لا يبشر بخير. فالريح أخذت تهب. أنظر كيف تتزايد ذرّات الثلج.

قلت ساخراً:

ـ خطر عظيم!...

ـ ولكن أنظر هنالك، ألا ترى؟

قال ذلك وهو يسدد سوطه نحو المشرق.

ـ لا أرى إلا سهلاً أبيض وسماء صافية.

ـ وتلك الغمامة الصغيرة؟

بصرتُ في أقصى الأفق بغمامة بيضاء كنت قد حسبتها رابية بعيدة. فأوضح لي الحوذي أن هذه الغمامة تنذر بعاصفة ثلجية.

كنت قد سمعت عن هذه الرياح العاتية التي تخرّب القرى وتدفن في بعض الأحيان ركباناً بأسرها. ونصح سافلتش الذي وافق السائق على مخاوفه أن نعود أدراجنا. إلا أن الريح لم تبدُ لي قوية جداً، وكنت آمل أن نصل إلى المحطة التالية في وقت مناسب، فأمرت الحوذي بأن يغذّ في السير.

وراحت الخيل تنهب الأرض خبباً، بينما السائق لا يكف عن النظر إلى ناحية الشرق. كانت الخيل تجري نشيطة قوية، إلا أن الريح اشتدت، واستحالت الغمامة الصغيرة إلى سحابة ضخمة بيضاءَ تتسع ثقيلة هائلة، وما تنفكُّ تكبر حتى غطت السماء كلها، وأخذ الثلج يهطل، رذاذاً دقيقاً في أول الأمر، وسبائخ ضخمة بعد ذلك، وأخذت الريح تزأر. إنها العاصفة، وما هي إلا لحظات حتى أصبحت الأرض الفسيحة والسماء القاتمة بحراً من الثلج.

صرخ الحوذي يقول:

ـ هي العاصفة يا سيدي... يا ويلنا...

أخرجت رأسي من العربة، فلم أرَ إلا ظلمات وزوابع تزأر كأنها حيوان هائل، وغطاني الثلج تماماً، كما غطى سافلتش، وأصبحت الخيل لا تتقدم إلا في كثير من العناء، ثم لم تلبث أن توقفت.

قلت وقد فرغ صبري:

ـ لماذا لا تتقدم؟

فأجاب الحوذي وهو ينزل عن مكانه:

ـ إلى أين تريد أن أسير؟ الله يعلم أين نحن الآن، لا أرى طريقاً، وليس ثمة إلا ظلام دامس!

فأخذت أكيل له اللوم جزافاً. فتدخل سافلتش ودافع عنه، ودمدم يقول في حنق:

ـ لماذا لم تطعه؟ أبيت إلا أن يتقدَّم، بدلاً من أن نعود أدراجنا إلى النزل نحتسي الشاي وننام حتى الصباح، فتكون العاصفة قد انقضت فنستأنف المسير. ما الذي يدفعنا إلى هذه السرعة كلها؟ أنحن ذاهبون إلى عرس!...

لقد كان سافلتش على حق، ولكن ما من وسيلة لإصلاح الموقف. واستمر الثلج يهطل، وأخذ يتكوم أمام العربة. ورأيت الخيل تطأطئ رؤوسها، وترتعد من حين إلى حين، وأخذ الحوذي يدور حولها ويرتّب عدتها تزجية للوقت، وجعل سافلتش يدمدم متذمراً أما أنا فكنت أنظر من حولي إلى جميع الجهات لعلي أعثر ولو على أثر للطريق، أو لعلي أهتدي إلى مسكن من المساكن. إلا أنني لم أر إلا الثلج يدور. وفجأة لمحت كتلة قاتمة فهتفت:

ـ يا حوذي، أنظر، ماذا ترى هنالك؟

حاولت نظرة الحوذي أن تخترق الظلام. وأجاب وهو يعود إلى مكانه:

ـ الله أعلم ما هذا أيها السيد. ليس هو عربة ولا شجرة. لكأنه يتحرك. لعله ذئب أو إنسان.

فأمرته أن يمضي نحو هذا الشيء المجهول الذي كان يتقدم نحونا هو أيضاً، وما هي إلا دقيقة أو دقيقتان حتى التقينا برجل. فصاح الحوذي يسأله:

ـ أنت أيها الأخ! قل لنا، هل تعرف أين الطريق؟

فأجاب الرجل:

ـ الطريق، هذه هي. ولكن ما الفائدة من ذلك؟

قلت:

ـ إسمع أيها الأخ الشهم، هل تعرف المنطقة؟ هل تستطيع أن تقودنا إلى أقرب مكان مأهول؟

ـ المنطقة أعرفها. لقد طفتها من كل جهة، طفتها على صهوة الجواد، وطفتها سائراً على القدمين. ولكنك ترى حالة الجو... إننا لن نسير خطوتين حتى تزول معالم الطريق... الأولى أن لا نتحرك من مكاننا، وأن ننتظر هدوء العاصفة وانكشاف السماء، فقد نستطيع عندئذ أن نستهدي بالنجوم.

لقد بثَّ هدوءه الشجاعة في نفسي، فقررت أن أَكِلَ أمري إلى الله، وأن أقضي الليلة في هذا الخلاء، فإذا بالرجل يقفز خفيفاً إلى مقعد السائق، على حين غرة، قائلاً له:

ـ الحمد لله. لسنا بعيدين عن أحد المساكن. أدر نحو اليمين، وهيَّا بنا.

فسأله الحوذي مغتاظاً:

ـ وماذا هنالك على اليمين؟ وأين ترى الطريق؟ الخيل ليست لك، والعربة ليست لك، وليس يهمك أن تموت الخيل أو تتحطم العربة!

وبدا لي أن السائق على حق، فاعترضت على اقتراح الرجل أقول:

ـ هذا صحيح، كيف تعرف أن هنالك مسكناً؟

فأجاب الرجل موضحاً:

ـ إن الريح تأتي من هذه الجهة، وإني لأشم فيها رائحة الدخان. وهذا دليل على أن ثمة قرية ليست ببعيدة عنّا.

أدهشتني حدة ذكائه ورهافة شمّه، فأمرت الحوذي أن يتقدم، وسارت الخيل بمشقة وهي تغوص. ولم تتقدم العربة إلا في كثير من البطء، فهي تارة تصطدم بكومة من الثلج، وتارة تنزلق في أخدود، وفي كل الأحوال تتأرجح ذات اليمين وذات الشمال، كأنها قارب تتقاذفه الأمواج في عرض البحر، وكان سافلتش يزفر زفرات مكبوتة، ويرتطم بي في كل لحظة. أسدلت الستارة، وتلفّعت بمعطفي، وغفوت يُهدهدني غناء العاصفة وتموّج العربة.

فرأيت فيما يرى النائم حلماً لم أستطع أن أنساه في حياتي، وما زلت إلى اليوم أَرى فيه نوعاً من النبوءة، ولا سيما حين أقرنه بالأحداث العجيبة التي كُتبَ عليَّ أن أعيشها. وأرجو أن يعذرني القارىء، فلعله يعرف بالتجربة أن الإنسان محمول على الاعتقاد بالخرافات، رغم احتقاره الشديد لجميع الاعتقادات السخيفة التي تعشش في عقول العامة.

كنت في تلك الحالة النفسية التي يتقهقر فيها الواقع أمام الحلم ويختلط به، فتنشأ من اختلاطهما هذه الرؤى المبهمة التي تراود المرء عند أول النوم. رأيت فيما يرى النائم أن الزوبعة ما زالت تخرّب، وأننا ما زلنا نضرب في صحراء يغطيها الثلج... وفجأة رأيت باباً لدخول العربات، فدخلنا، فإذا نحن في باحة منزلنا المنيف. وكان أول ما خطر على بالي هو أن أتحاشى غضب أبي الذي قد يلومني على هذه العودة غير المقصودة، إذ يؤولها بأنها عصيان مقصود. فنزلت من العربة وأنا أَشَدُّ ما أكون قلقاً، فرأيت أمي تقبل عليّ، ووجهها يعبّر عن كَرَبٍ شديد. قالت:

ـ بهدوء. . . أبوك مريض جداً. إنه يحتضر، ويريد أن يودعك الوداع الأخير.

فصعقت من الذعر، وتبعت أمي إلى غرفة النوم، وكان الضوء فيها خافتاً شاحباً، فرأيت أناساً واقفين إلى جانب السرير وقد تجهمت وجوههم حزناً. اقتربت على رؤوس الأصابع، وأزاحت أمي السجف، وهي تنادي أبي بقولها:

ـ آندرثي بتروفتش. بتروشا هنا لقد عاد حين علم أنك مريض. أدعُ له، وارضَ عنه.

فركعت، ورفعت نظري إلى المريض. يا إلهي!. . . لم أر أبي، بل رأيت فلاحاً ذا لحية سوداء يحدّق فيّ وهو يبتسم ابتسامة مرحة، فالتفتّ نحو أمي مضطرباً أقول:

ـ ما معنى هذا؟ ليس هذا أبي!. لماذا يجب عليّ أن أطلب الرضى والبركة من هذا الفلاح؟

فأجابت تقول:

ـ سيّان يا بتروشكا إنه أبوك المتبني. قبّل يده، واطلب رضاه.

رفضت أن أفعل. عندئذ نهض الفلاح عن السرير قفزاً، وأخذ يجوب الغرفة مشهراً فأساً، وأردت أن أهرب فلم أستطع، وامتلأت الغرفة بالجثث أتعثر بها وأغوص في برك من الدماء، وناداني الفلاح بصوت حنون:

ـ لا تخف. تعال أطلب الرضى والبركة!

فاستيقظت من نومي وأنا أشد ما أكون ذعراً ورعباً واضطراباً، وكانت الخيل قد توقفت، وكان سافلتش قد أمسك بيدي وهو يقول:

ـ إنزل يا سيدي، لقد وصلنا.

سألته وأنا أفرك عيني:

ـ وصلنا إلى أين؟

ـ إلى النزل. لقد هدانا الله سرنا على خط مستقيم بمحاذاة سدٍّ حتى وصلنا إلى هنا. هيّا إنزل، واذهب إلى النار تستدفئ.

تركت العربة، وكانت العاصفة ما تزال تزأر، إلا أن زئيرها قد خفّ، وكان الليل حالكاً جداً، واستقبلنا صاحب البيت عند المدخل، وهو يمسك القنديل بيده ويحميه من الريح بطرف ثوبه. وقادني إلى غرفة نظيفة، ولكنها ضيقة، فيها مصباح، وعلى حائطها علقت بندقية وقبعة قوزاقي.

إن صاحب البيت قوزاقي الأصل، فلاح في الستين من عمره، نضر نشيط. ودخل سافلتش يحمل صندوقي بيده، وطلب ناراً ليهيىء الشاي، وخيل إلي أنه ما اشتهى الشاي في حياته مثلما يشتهيه الآن. ومضى الفلاح يحضّر ما يجب تحضيره.

سألت سافلتش:

ـ وأين الدليل؟

فأجاب صوت من فوقي يقول:

ـ إني هنا يا سيدي النبيل.

فرفعت بصري إلى السقيفة فرأيت لحية سوداء، وعينين براقين.

ـ بردنا كثيراً، أليس كذلك؟

ـ وأي برد! لا سيما أنني لا أرتدي إلا هذا المعطف الملعون. كانت لي فروة، ولكنني لا أكتمك أنني رهنتها أمس عند أحد أصحاب الحانات. لم أكن أتوقع أن يكون البرد شديداً إلى هذا الحد!

وفي هذه اللحظة دخل صاحب المنزل وهو يحمل إبريق الشاي يتصاعد منه البخار. فدعوت الدليل إلى فنجان من الشاي، فترك

السقيفة وأقبل نحوي. وبدا لي مظهره غريباً يلفت الانتباه، إنه في الأربعين من عمره، ربع القامة، نحيل، إلا أن كتفيه عريضان، وقد اشتعل الشيب في لحيته السوداء، وعيناه الواسعتان القويتان لا تستقران على حال، ولملامحه تعبير جميل على مكر وخبث، وقد قُصَّ شعر رأسه على صورة كرة، وكان يرتدي معطفاً ممزقاً وسروالاً كالحاً. قدمت له فنجاناً من الشاي، فلما ذاقه ارتسمت على وجهه علائم التقزز وقال:

- أيها السيد النبيل. مر لي بقدح من الخمر، فليس الشاي شراباً لقوزاقي.

وبادرت فلبيت طلبه. فقام صاحب البيت إلى خزانة صغيرة فتناول منها زجاجة وقدحاً، ثم اقترب من الدليل يريد أن يسكب له الخمرة، فإذا هو يقول وقد تفرس في وجهه:

- أهذا أنت؟ عدت إلى هذه الأراضي! من أين قذفتك الأقدار؟

فغمزه الدليل غمزة ذات معنى، وأجاب يقول بأمثال معمَّاة:

- كنت في المزرعة، وقنباً نقرت، رمتني الأم العجوز بحجر، لكنها أخطأتني. كيف حال جماعتكم؟

فأجاب المضيف يكمل هذا الحوار الرمزي:

- جماعتنا؟ كانوا قد أخذوا يصلون صلوات العصر. إلا أن الكاهنة منعتهم. الكاهن في زيارة، والشياطين في المقبرة.

فأجاب المتشرد يقول:

- كفى يا عم. حين تمطر السماء تنبت الكمأة، ومن قال كمأة نال كمأة... والآن (هنا غمز بعينه) خبيء فأسك، فالحارس غير بعيد!... أيها السيد النبيل، إنني أشرب على نخبك.

ثم تناول الكأس، فصلّب وأفرغه في جوفه دفعةً واحدة. ثم

حيّاني. وقفز مرة أخرى إلى السقيفة.

لم أفهم شيئاً من حديث اللصوص هذا، ولم أحزر إلا فيما بعد أن الكلام كان يدور حول فرقة اليائيق القوقازية، التي أخمدت ثورتها منذ مدة قصيرة (عام 1772). كان سافلتش يصغي إلى الحديث وقد لاح عليه الامتعاض، وكان يلقي على صاحب البيت وعلى الدليل نظرات ارتياب. إن النزل في قلب الفيافي، بعيد عن كل قرية، كأنه ملجأ عصابة من اللصوص، إلا أنه لم يكن ثمة مجال للتردد، ولا كان يمكن التفكير في استئناف السفر. وأضحكتني مخاوف سافلتش، ثم نمت فوق مقعد طويل، ومضى سافلتش يعتصم بمصطبة المدفأة، وتمدد صاحب البيت على الأرض، ولم تلبث الغرفة أن امتلأت شخيراً مدوياً، واستغرقتُ في نوم عميق ثقيل.

واستيقظت في الصباح متأخراً، فلاحظت أن العاصفة قد هدأت، وأن الشمس تسطع. كان الثلج يفرش الأرض بساطاً لامعاً ممتداً إلى الأفق. وكُدنت الخيل. ودفعت لصاحب النزل ما طلبه من أجر، وهو أجر زهيد، لم يعترض عليه سافلتش، على خلاف عادته، حتى لكأنه نسي ظنون الأمس. واستدعيت الدليل أشكره على حسن صنيعه، وأمرت سافلتش أن يعطيه خمسين كوبكاً. فامتعض العجوز امتعاضاً شديداً وهو يقول:

- خمسين؟ لماذا؟ ألأنك تفضَّلت عليه فنقلته إلى النزل بالعربة؟ على رسلك يا سيدي، فخمسيناتنا لا تزيد عن حاجتنا، وإذا نحن أخذنا نبذر مالنا ذات اليمين وذات الشمال فلن يبقى لنا ما نسدُّ به جوعنا!

لم يكن في وسعي أن أعترض، فلقد وعدت سافلتش أَن يكون المال بين يديه يتصرف فيه كما يشاء. ومع ذلك كان يؤسفني أن لا

أستطيع أن أكافيء هذا الرجل الذي أنقذني من مأزق حرج إن لم يكن من كارثة.

قلت في هدوء:

ـ حسناً. إذا كنت لا تريد أن تعطيه نقوداً، فاعطه شيئاً من ملابسي، فثيابه قليلة لا تقيه القرَّ: أعطه فرائي المصنوع من جلد الأرنب، مثلاً.

فقال سافلتش:

ـ أوه! يا بتروشكا بترو أندرفتش! ما حاجته إلى فرائك؟ إنه سيتركه في أول خمارة، هذا الكلب السكير!

فقال المتشرد:

ـ هيه أيها العجوز. ليس يعنيك أين أتركه. إن السيد النبيل قد «خلع عليّ فراءه»، تلك كانت مشيئة السيد، وليس من شأنك أن تناقش، وإنما عليك أن تطيع كخادم أمين!

فأجاب سافلتش بصوت يرتجف غضباً:

ـ ألا تخاف الله أيها اللص؟ ألا ترى أن هذا الطفل لا يفهم شيئاً؟ ألا تستجي من استغلال سذاجته لتنهبه؟ ثم ما حاجتك إلى فراء صغير لا تستطيع أن تضعه على كتفيك وضعاً فضلاً عن ارتدائه؟

فقاطعته قائلاً:

ـ كفى جدالاً، هات الفراء في الحال.

فتأوه سافلتش يقول:

ـ يا إلهي! الفراء شبه جديد! وليته يهبه لإنسان محترم. إنه يهبه لسكير متشرد حافي القدمين!

وظهر الفراء مع ذلك. وما لبث الفلاح (الموجيك) أن أخذ يجرّبه. والحق أن الفراء كان ضيقاً عليَّ، فكيف لا يكون ضيقاً

عليه، واستطاع مع ذلك أن يندسَّ فيه، مفتِّقاً إياه من جميع الجهات. ولم يجأر سافلتش. وبدا المتشرد راضياً كل الرضى عن هدبتي وشيّعني حتى العربة، وانحنى يودعني في تحية عميقة.

ـ شكراً أيها السيد النبيل، جزاك الله عن كرمك خيراً. لن أنسى فضلك ما حييت.

ومضى إلى سبيله. وتابعنا نحن رحلتنا. ولم ألتفت قط إلى تأوّهات سافلتش، وسرعان ما نسيت عاصفة البارحة والدليل والفراء.

فلما وصلت إلى أورنبرج مضيت رأساً إلى بيت القائد اللواء. فرأيت رجلاً فارع القامة، مقوّس الظهر بعض الشيء من الشيخوخة، طويل الشعر أشيبه تماماً، تذكّر بدلته العسكرية المهترئة الكالحة بالمحاربين في عهد آنا إيفانوفنا (إمبراطورة روسيا من 1730 إلى 1740). وفي لهجته لكنة ألمانية قوية. ناولته رسالة أبي. وحين ذُكر له إسمي ألقى عليّ نظرة سريعة.

ـ ما شاء الله! منذ مدة غير تويلة كان آندره بتروفتش في سنك، والآن أسبَه له ولد كبير مثلك. الزمان ينكدي بسرأة (منذ مدة غير طويلة كان آندره بتروفتش في سنك، والآن أصبح له ولد كبير مثلك. الزمان ينقضي بسرعة).

وفضّ الرسالة، وأخذ يقرؤها بصوت مسموع، مضيفاً إليها ملاحظات من عنده «عزيزي آندره كارلوفتش، أرجو أن تكون سعادتك...» ما هذه التأزيمات والتفخيمات (ما هذه التعظيمات والتفخيمات).

ـ ألا يستهي؟ طبعاً، النظام شيء أساسي، ولكن هل هكذا يخاتب رفيك كديم؟ (ألا يستحي؟ طبعاً، النظام شيء أساسي، ولكن هل هكذا يُخاطب رفيق قديم؟) «لعل سعادتك لم تنس... وحين...

المرحوم مارشال مونيد... الفرقة... وكذلك كارولين...» آ، إنه ما زال يذكر رزالاتنا الكديمة... ولكن لنتهدث في الأعمال (آ، إنه ما زال يذكر رزالاتنا القديمة، ولكن لنتحدث في الأعمال) «أرجو أن ترفع يده عالياً» ما مأنى هذا لا شك أنه تأبير روسي كه» (ما معنى هذا؟ لا شك أنه تعبير روسي قح) قال ذلك ملتفتاً إِليَّ يسألني. فأجبت وأنا أصطنع غاية السذاجة والبساطة:

ـ معناه أن يُعامَل أحدهم معاملة حسنة، لا قسوة فيها ولا صرامة، وأن يُمنح أكبر قدر من الحرية. هذا هو معنى «رفع اليد عالياً».

ـ ها! فهمت! «وأن لا تمنحه كثيراً من الحرية». لا، لا. أأتكد أن الإبارة تأني شيئاً رخر (لا، لا، أعتقد أن العبارة تعني شيئاً آخر). «تجد مع هذه الرسالة جواز سفره». أين هو؟ آ، هذا هو. «أرجو أن تكتب إِلى سميونوفسكي». نأم، نأم، سنأمل كل شيء (نعم، نعم، سنعمل كل شيء). «إسمح لي أن أقبّلك بلا حرج ولا كلفة و...

«صديقك القديم ورفيقك.»

آ، إنه يتذكر مأ ذلك (مع ذلك).

قال وقد قرأ الرسالة ووضع جواز السفر جانباً:

ـ والآن أيها الولد الشجاء... سنأمل كل شيء... سننكلك إِلى كتيبة ن... برتبة دابت، ولكي لا نُديء الوكت ستسافر منذ الغد إِلى هسن بيلوجورسكايا، وتتأرف هناك إِلى رئيسك الجديد، الدابت الرئيس ميرنوف، وهو رجل تيب ومهترم ستكون هناك في الخدمة الفعيلة، وستتألم النزام. ليس لك شغل في أورنبورج، ولا بليك بشاب أن يبكي آتلاً أن الأمل. واليوم تتغدى إِندي. (والآن أيها الولد الشجاع... سنعمل كل شيء. سننقلك إِلى كتيبة ن... برتبة ضابط، ولكي لا نضيع الوقت ستسافر منذ الغد إِلى حصن

بيلوجورسكايا، وتتعرف هناك إِلى رئيسك الجديد، الضابط الرئيس ميرونوف، وهو رجل طيب ومحترم. ستكون هناك في الخدمة الفعلية وستتعلم النظام. ليس لك شغل في أورنبورغ، ولا يليق بشاب أن يبقى عاطلاً عن العمل. واليوم تتغدى عندي).

قلت في نفسي «عال عال. ماذا أفادني أن سُجلت رقيباً في الحرس من قبل أن أولد؟ إِلى أين أوصلني هذا؟ إِلى كتيبة ن... في حصن على حدود فيافي كرخيز!

تغديت مع آندره كارلوفتش ومساعده العجوز. وكان يسيطر على المائدة اقتصاد ألماني قاس، وأغلب الظن أنه ما نقلني إِلى الحصن إِلا خوفاً من أن يرى ضيفاً جديداً على مائدته وهو عازب.

استأذنت القائد اللواء في اليوم التالي، واستأنفت سفري إِلى المكان الذي عُيِّن لي.

الفصل الثالث

الحصن

نعيش في حصن،
طعامنا الخبز، شرابنا الماء،
إن جاءنا يوماً عدو كاسر
ينازعنا طعامنا،
أقمنا له وليمة من نيران المدافع

«من أغاني الجنود»

يقع حصن بيلوجورسكايا على بعد أربعين فرسخاً من أورنبورغ ويمتد الطريق إليه على حافة نهر اليائيق الصخرية. لم يكن الجليد قد بلغ النهر بعد، فكانت المياه تتدفق بين حافتيه المكسوتين بالثلج حزينةً بلون الرماد. ووراء الضفة الثانية تمتد فيافي كرخيز. غرقت في تأملات حزينة. ليس في حياة الثكنة ما يجذبني البتة. وحاولت أن أتصور الضابط ميرونوف، رئيسي المقبل، فتخيلته عجوزاً قاسياً صارماً لا يعرف شيئاً غير عمله العسكري، ويستطيع أن يعاقب على أقل هفوة بالصيام على الخبز والماء. جاء المساء وأنا غارق في هذه التأملات، فقد كنا نسير بسرعة.

سألت الحوذي:

ـ هل الحصن بعيد؟

ـ بل هو ذا!

فالتفتّ إلى جميع الجهات وأنا أتوقع أن أرى فوهات مهدّدة وأسواراً، وقلاعاً، ولكنني لم أرَ إلا قرية صغيرة محاطة بحاجز من جذوع السنديان، ورأيت في إحدى الجهتين ثلاثة أو أربعة بيادر من العلف غطّاها الثلج، وفي الجهة الأخرى طاحونة مائلة إلى الجانب متراخية الأجنحة في كسل.

سألت في دهشة:

ـ وأين الحصن؟

فأجاب السائق يقول وهو يشير إلى القرية التي لم نلبث أن دخلناها:

ـ هو ذا الحصن.

كان على مدخل القرية مدفع قديم من الصلب. والشوارع ضيقة متعرجة، والبيوت ملتوية، سقوفها من قش.

أمرت السائق أن يذهب بي إلى منزل آمر الموقع، فما هي إلا لحظة حتى وقفت العربة أمام بيت خشبي، مبني على مرتفع غير بعيد من الكنيسة.

لم يأت أحد لاستقبالي، فدخلت في الدهليز وفتحت الباب المؤدي إلى الحجرة الأولى، فرأيت عجوزاً مقطوع الساق، جالساً إلى طاولة، يرقّع كوع بدلته العسكرية الخضراء بقطعةٍ من نسيج أزرق، فأمرته أن يسأذن لي بالدخول، فقال:

ـ أدخل يا بني، إن جماعتنا في البيت.

فدخلت، فإذا أنا في غرفة نظيفة، مؤثثة على الطراز القديم، في

ركن منها خزانة للأواني، وعلى أحد جدرانها عُلّقت شهادة ضابط ذات إطار؛ وعلى الجانب صور منقوشة نقشاً سيئاً تمثل الاستيلاء على كوسترين وأوتشاكوف، ثم لوحة «اختيار خطيبة» ولوحة «جنازة قطة» وإلى جوار النافذة جلست امرأة ترتدي معطفاً مبطناً بفراء، وعلى رأسها وشاح، تقوم بلفّ شلة من الخيطان أمسكها أمامها بيديه المتباعدتين رجل مسن قصير أعور يرتدي لباس ضابط.

سألتني المرأة دون أن تقطع عملها:

ـ ماذا تريد يا بني؟

فأجبت بأنني وقد عُينت في الحصن جئت أقدم نفسي للسيد الضابط وفقاً لما يقتضيه الواجب، والتفتّ وأنا أقول هذا الكلام نحو العجوز الأعور، لظني أنه هو الآمر، إلا أن صاحبة البيت قاطعت كلامي، تقول:

ـ لقد خرج إيفان كوزمتش، ذهب يزور الأب جراسيم ولكن سيّان. أنا إمرأته، آمل أن نصبح أصدقاء. إجلس يا بني.

ثم نادت بنتاً، وأمرتها أن تحضر الوكيل. وأدار العجوز القصير نحوي عينه الوحيدة، ورمقني بنظرات مستطلعة. قال:

ـ هل تسمح لي أن أسألك في أية فرقة كانت خدمتك العسكرية؟

فأرضيت حبه للاستطلاع.

ـ وهل أجرؤ أن أسألك لماذا تركت الحرس وكيف صرت إلى ثكنة في الريف؟

فأجبته بأن مشيئة رؤسائي كانت كذلك.

فأضاف السائل الذي لا يكل ولا يملّ يقول:

ـ ربما لأمور لا تتفق ومكانة ضابط في الحرس.

قالت «الآمرة»:

ـ كفى ثرثرة! ألا ترى أن الفتى قد وصل منذ هنيهة؟ لا شك أنه منهكٌ من التعب، ولا يتسع وقته للاهتمام بك والإجابة على أسئلتك. الأحسن من هذا أن تزيد في مدّ يديك إلى أمام.

واستأنفت تقول ملتفتة نحوي:

ـ وأنت يا بني، لا يحزنك أنك أُرسلت إلى هذا المكان المنعزل. لست الأول ولا الأخير. ستتعود. أنظر إلى شفابرين الكساي إيفانوفتش، لقد نقل إلى هنا منذ خمس سنين لقتله أحد الضباط. ذهب مع أحد الملازمين إلى ظاهر المدينة، واصطحب كل منهما سيفه، وظلا يتضاربان إلى أن بقر شفابرين بطن الملازم، وكل ذلك بحضور شاهدَيْن، هذه هي الدنيا، ماذا تريد؟

وفي هذه اللحظة دخل الوكيل، وهو قوزاقي شاب حسن الهندام. فقالت له الآمرة:

ـ مكسيمتش، إبحث عن مسكن لحضرة الضابط، وليكن نظيفاً!

ـ أمرك مطاع يا فاسيليسا بيجوروفنا، ما رأيك في أن نسكن صاحب النبالة عند إيفان بوليائيف؟

ـ أنت تهرف يا عزيزي، ليس في بيت بوليائيف مكان. ثم إن بوليائيف قريبي، وهو لا ينسى أبداً أننا رؤساؤه. لا. الأفضل أن تقود حضرة الضابط... ما اسمك يا بني؟

ـ بترو أندرفتش.

ـ الأفضل أن تقود بترو أندرفتش إلى بيت سيمون كوزوف. إن هذا السافل قد ترك حصانه يطوف في بستاني... هل كل شيء هادىء يا مكسيمتش؟

فأجاب القوزاقي:

ـ كل شيء هادىء، بحمد الله، ما عدا أن العريف بروخوروف قد

تشاجر بالحمام أمس مع أوستينيا نيجولين على سطل من الماء الساخن.

قالت الآمرة ملتفتةً إلى الضابط الأعور:

ـ إيفان إجناتتش، أحضر بروخوروف وأوستينيا، وانظر أيهما المذنب وأيهما البريء، وعاقبهما كليهما. وأنت يا مكسيمتش، تستطيع أن ترافق بترو أندرفتش.

ثم نظرت نحوي وقالت: سيدلك مكسيمتش على مسكنك.

فحييت الآمرة، وقادني الضابط إلى عزبة كوزوف، وهي قائمة على مرتفع فوق النهر في آخر الحصن. كانت أسرة كوزوف تشغل نصف البيت، فوضعوا النصف الآخر تحت تصرفي، وهو غرفة نظيفة يقسمها حاجز إلى غرفتين، وجعل سافلتش يعنى بترتيب الأشياء، بينما أخذت أسرّح النظر من خلال نافذة ضيقة في الفيافي الحزينة التي تمتد أمامي على مدى البصر، وكانت بعض البيوت تُرى من الجانب، ودجاجات تهوّم في الشارع، وامرأة عجوز واقفة على درجات باب البيت تنادي الخنازير، وفي يدها معلف، والخنازير تجيب على ندائها على نحو ودّي. أفي بلد كهذا كُتب عليّ أن أقضي صباي؟ ثم تملكني سأم عميق، فتركت مرصدي ونمت دون عشاء، رغم إلحاح سافلتش في محاولة إقناعي بضرورة الطعام. فكان لا ينفك يردد قائلاً:

ـ يا إلهي! إنه لا يريد أن يأكل شيئاً! ما عسى أن تقول سيدتي إذا وقع إبنها مريضاً؟

وما كدت أبدأ في الصباح بارتداء ثيابي حتى فُتح الباب ودخل ضابط شاب، ليس بالطويل، أغبر الوجه دميمه جداً، على حيوية ونشاط.

قال يخاطبني بالفرنسية:

ـ أعذرني إذا أنا جئت أتعرف إليك بلا حرج ولا كلفة، لقد علمت بوصولك أمس، فإذا الرغبة في أن أرى أخيراً وجه إنسان تملك عليّ مشاعري، فما استطعت أن أحبس نفسي عن المجيء. ستبرر سلوكي هذا بعد أن تقضي هنا بعض الوقت.

حزرت أنه الضابط الذي طُرد من الحرس لأنه قاتل في مبارزة. وسرعان ما تعارفنا. إنه ليس بالغبي. وإن حديثه لمرح رشيق فكه. أخذ يصف في كثير من السخرية اللاذعة أسرة الآمر، وسكان المنطقة، وهذا البلد الذي ساقني إليه القدر، فكنت أضحك من أعماق قلبي. وفي هذه اللحظة دخل ذو الساق المقطوع الذي كان يرقّع بالأمس بدلته العسكرية في مدخل بيت الآمر، فدعاني باسم فاسيليسا بيجوروفنا إلى طعام الغداء، وعرض عليّ شفابرين أن يصحبني.

وحين اقتربنا من بيت الآمر رأينا في ساحة صغيرة ما يقرب من عشرين رجلاً من مشوّهي الحرب، ذوي ضفائر طويلة، قد انتظموا في صف واحد، ورأينا الآمر واقفاً أمامهم، وهو عجوز فارع القامة رشيق، على رأسه طاقية ويرتدي ثوب المنزل. فلما رآني أقبل علينا، وقال لي بضع كلمات وديّة، ثم عاد إلى تدريبه، فوقفنا ننظر إليه، غير أنه رجانا أن نمضي إلى فاسيليسا بيجوروفنا، قائلاً إنه سيتبعنا بعد قليل. ثم أضاف:

ـ ليس ههنا ما يستحق أن يُرى.

واستقبلتنا فاسيليسا بيجوروفنا ببساطة ومودة، وعاملتني معاملة من يعرفني منذ زمان طويل، وأخذ ذو الساق المقطوعة وبالاشكا يهيّئان المائدة. قالت الآمرة:

ـ إن صاحبنا إيفان كوزمتش يقوم بالتدريب. . . يا بالاشكا، قولي لسيدك إن الطعام قد هُيّء ولكن أين ماشا؟

في هذه اللحظة دخلت فتاة في الثامنة عشرة من عمرها، مدوَّرة الوجه وردية الوجنتين، شعرها الأشقر مُسْدَل إلى وراء.

لم تعجبني كثيراً في أول الأمر، ونظرت إليها في نوع من الادعاء. وكان شفابرين قد وصف لي ماشا، إبنة الضابط الرئيس، على أنها فتاة غبية حمقاء. جلست ماريا إيفانوفنا في ركن من الغرفة وأخذت تخيط. وفي أثناء ذلك صُبّ الحساء في الصحون، فلما رأت فاسيليسا بيجوروفنا أن زوجها لم يصل بعد، أرسلت بالاشكا مرة أخرى تستحثه على المجيء.

ـ قولي لسيدك إن الضيوف ينتظرون، وإن الحساء يوشك أن يبرد. الحمد لله على أن التدريب ليس بالمستعجل، الوقت أمامه طويل لَبحّ صوته...

وما هي إلا لحظة حتى ظهر الضابط الرئيس يتبعه الضابط الأعور.

قالت له امرأته:

ـ ما هذا يا عزيزي؟ إن الطعام على المائدة منذ مدة طويلة.

فأجاب إيفان كوزمتش يقول:

ـ ولكنك تعلمين يا فاسيليسا بيجوروفنا أنني أقوم بواجبي وأدرّب جنودي الشجعان.

فردت الآمرة بقولها:

ـ كفى، كفى من هذا الكلام. إن جنودك لن يتوصلوا إلى تعلّم الخدمة العسكرية، وأنت نفسك لا تفقه منها شيئاً. خير لك أن تبقى في البيت، وأن تصلّي. أيها الضيوف نرجوكم أن تشرفونا...

جلسنا إلى المائدة لم تنقطع فاسيليسا عن الثرثرة لحظة واحدة، وأغرقتني بسيل من الأسئلة: من هما أبواي، هل هما على قيد

الحياة، أين يقطنان، ما هي حالتهما المالية. فلما علمت أن أبي يملك ثلاثمائة نفساً قالت:

ـ ما زال في الدنيا أناس أَغنياء. أما نحن يا بني فلا نملك إلا خادمة واحدة، هي البنت بالاشكا؛ على أننا نعيش حياة لا بأس بها والحمد لله! ليس هناك إلا شيء واحد يقلقنا، هو أن ماشا في سن الزواج. وما عسى نستطيع أن نقدّم لها مهراً: مشطاً، ومقشة، ورأسمالاً قدره ثلاثة كوبيكات، أي ما يكفي للذهاب إلى الحمام (اللهم مغفرتك!). هذا إذا وجدنا لها عريساً لائقاً، وإلا ظلّت عانساً إلى آخر أيامها.

نظرت إلى ماريا، فإذا هي قد تضرّجت بحمرةٍ شديدة، وهطلت من عينيها دموع على الصحن، فأشفقت عليها، وسارعت إلى تغيير مجرى الحديث. قلت في غير مناسبة:

ـ سمعت أن الباشكير كانوا ينوون مهاجمة حصنكم.

فسألني إيفان كوزمتش يقول:

ـ أين سمعت هذا يا بني؟

فأجبت:

ـ ذُكر لي في أورنبورغ.

فأجاب الآمر:

ـ هذا خطأ، إننا لا نرى شيئاً في هذه المنطقة منذ مدة طويلة. لقد عرفنا كيف نخيف الباشكير، وأما الكرخيز فقد أعطيناهم درساً. فلن يجرؤوا على أن يهاجمونا بعد الآن، وإذا حدث هذا يوماً، فلسوف أستقبلهم استقبالاً يثيبهم إلى رشدهم خلال عشرة سنين على الأقل.

فقلت متجهاً إلى امرأته:

ـ ألا تخافين من الإقامة في حصن تهدده هذه الأخطار؟

فأجابت بقولها:

ـ لقد تعوّدت يا بني. حين أُرسلنا إِلى هنا منذ عشرين سنة كنت أخاف من هؤلاء الكفرة خوفاً فظيعاً... كان يكفيني أن ألمح طاقياتهم المصنوعة من جلد الثعلب، وأن أسمع زئيرهم حتى يخفق قلبي خفقاناً شديداً! أما الآن فقد تعودت حتى صرت لا أتحرك من مكاني إذا جاء أحد يقول إِن هؤلاء الجناة يحومون حول البلدة. فقال شفابرين متبجّحاً:

ـ إِن فاسيليسا بيجوروفنا سيدة شجاعة. يشهد بذلك إيفان كوزمتش.

فقال إيفان كوزمتش:

ـ طبعاً، طبعاً! لا ترفّ لها عين!

فسألتها:

ـ وهل ماريا إيفانوفنا في مثل شجاعتك؟

فأجابت الأم تقول:

ـ في مثل شجاعتي؟ لا، لا. إِن ماشا شديدة الفزع. إِنها حتى هذا اليوم لم تستطع أن تسمع طلقة بندقية دون أن ترتعد. وحين أمر إيفان كوزمتش، منذ سنتين، وكنّا نحتفل بعيد ميلادي، بإطلاق نيران المدفع كادت تموت جزعاً. ومنذ ذلك الحين أصبحنا لا نقارب المدفع اللعين أبداً.

ونهضنا عن المائدة، فمضى الضابط الرئيس مع زوجته ينامان قليلاً، وذهبت أنا مع شفابرين أقضي في بيته بقية النهار.

الفصل الرّابع

المبارزة

لك ما تشاء، هيا استعد،

سترى كيف أبقر جلدك

«كليا جنين»

انقضت بضعة أسابيع. وبدأت أشعر أن إِقامتي في بيلوجورسكايا ليست محتملة فحسب، بل مليئة كذلك بالمتعة والسرور. كانت أسرة الآمر تستقبلني كأنني أحد أقربائها. إن الزوج وزوجه شخصان محترمان. الزوج إيفان كوزمتش ابن جندي بسيط، وقد توصل بجدّه إلى رتبة ضابط، وهو ضئيل الثقافة إلا أنه طيب وشريف، وهو بطبيعته ضعيف الشخصية، فكانت تقوده امرأته. وكانت فاسيليسا بيجوروفنا تنظر إِلى الخدمة نظرتها إِلى أعمال بيتها، وتدير الحصن كما لو كان الأمر أمر منزلها الشخصي. أما ماريا إيفانوفنا فإن نفورها مني ما لبث أن زال، وتوطد بيننا التعارف، فرأيت أنها فتاة عاقلة بل وعاطفية. وقد ازداد تعلّقي بهذه الأسرة الشريفة شيئاً بعد شيء، وفي عدادها إيفان آجناتتش، الملازم الأعور الذي ذكر لي شفابرين أنه عشيق فاسيليسا بيجوروفنا، وهي تهمة باطلة ليس لها أثرٌ من حقيقة،

إلا أن شفابرين لا يزعجه أن يلفّق مثل هذه الأقاويل البسيطة! . . .

ورُفِّعتُ إلى رتبة ضابط، ولم تكن الخدمة مرهقة البتّة، فليس في هذا الحصن الذي يحرسه الله، تفتيش ولا تدريب ولا أعمال حراسة. كان الآمر يدرّب الجنود قليلاً من حين إلى حين بدافع من نفسه، إلا أنه لم يكن قد توصل بعدُ إلى أن يعلّم جميع جنوده تمييز اليد اليسرى من اليد اليمنى، رغم أن بعضهم كان يصلّب قبل أن يدور حتى لا يخطئ. وكان شفابرين يملك عدداً من الكتب الفرنسية، فأخذت أقرأ، وما لبثت أن شعرت بميل إلى الأدب، فكنت أقضي الصباح أترجم، وأنظم في بعض الأحيان شعراً. وكنت في كل الأيام تقريباً أتناول طعام الغداء على مائدة الآمر، وأقضي في بيته بقية النهار. وكان الأب جراسيم يأتي لقضاء السهرة في بعض الأحيان، تصحبه زوجته آكولينا بامفيلوفنا، وهي أول من يحمل أنباء المنطقة ويذيعها. وطبيعي أنني كنت ألقى ألكسي إيفانوفتش شفابرين في كل يوم، إلا أنني صرت أزداد بَرَماً بحديثه يوماً بعد يوم، وأصبحت أرى سخرياته من أسرة الآمر في غير محلها، ولا سيما ملاحظاته التي تهزأ من ماريا إيفانوفنا. ليس في الحصن غير هذا المجتمع، إلا أنني كنت لا أطمع في أحسن منه.

ولم يَثُر الباشكير، رغم نبوءات القائد اللواء، وكان الهدوء مهيمناً على المنطقة بأسرها، إلا أن السلام قد انقطع فجأة بخصومة داخلية.

ذكرت لكم شيئاً عن مشاغلي الأدبية، وقد تبيّن أن هذه القرزمات كانت مرضية في حينها، حتى أن ألكسندر بتروفتش سوماروكوف قد تحدث عنها بعد بضع سنين في كثير من الثناء والتقريظ. واستطعت في ذات يوم أن أؤلف نشيداً، وكنت راضياً عنه كل الرضى، وأنتم

تعلمون أن الشعراء يبحثون دائماً عن مستمع ينشدونه قصائدهم زاعمين أنهم يسألونه بعض النصائح. وهكذا نسخت قصيدتي وحملتها إلى شفابرين، وهو الشخص الوحيد الذي يستطيع في هذا الحصن أن يقدّر مزايا هذا النوع من الإنتاج، ثم قرأتها له، بعد تمهيد مناسب:

أود يا حبيبتي أن أنساك
بالابتعاد عنك
وأن لا أعود أفكر فيك،
أن أكون حراً، ولكن. . .
يا لهاتين العينين، تطلان عليّ
في كلّ لحظة. . .
فإذا روحي مضطربة
لا يعرف السلام إليها سبيلاً.
ليتك تعلمين ما أعاني من برح
آه يا ماشا
رفقاً بي
يا من أسرت قلبي.

ـ ما رأيك؟

طرحت على شفابرين هذا السؤال، وأنا أنتظر منه الثناء. إلا أن شفابرين، وهو السَّمِح المتساهل في العادة، أعلن بلهجة قاطعة، أن القصيدة لا قيمة لها البتة.

فقلت، وأنا أخفي انزعاجي:

ـ لماذا؟

قال:

ـ لأن مثل هذه الأشعار خليقة بالمرحوم أستاذي فاسيلي كيرليتش تردياكوفسكي[1]، وهي تذكّرني بثنائيّاته الغزلية.

ثم تناول الدفتر من يدي، وأخذ يجرّح كل قصيدة من قصائدي، ويسخر منها سخراً لاذعاً لا رحمة فيه ولا شفقة، فلم أستطع أن أكظم غيظي، فانتزعت الدفتر من يده معلناً أنني لن أطلعه في حياتي على شيء مما أنظُم.

وأضحكه هذا التهديد. قال:

ـ سنرى هل تلتزم هذا الكلام! إن حاجة الشعراء إلى مستمع، كحاجة إيفان كوزمتش إلى إبريق من الفودكا قبل الطعام. ثم من هي ماشا هذه التي تبوح لها بغرامك، وتبثّها شجونك وآلامك؟ لعلها ماريا إيفانوفنا؟

فأجبت وأنا أقطّب حاجبي:

ـ هذا لا يعنيك! ما طلبت رأيك، ولا سألتك أن تحزر من هي ماشا هذه!

فقال وقد ازداد حنقي:

ـ على رسلك أيها الشاعر الطموح والعاشق المتواضع. إليك هذه النصيحة يسوقها صديق مخلص: إذا أردت أن تظفر بها فتوسّل بغير القصائد!

ـ ما تعني بهذا أيها السيد؟ أوضح!

ـ بكل سرور! أعني أنك إذا اشتهيت أن تزورك ماشا ميرونوفا عند المغيب، فإن قرطاً تهديه إليها أنجع في ذلك من قصائدك الغزلية الرقيقة!

---

(1) أحد أوائل الشعراء الروس (1703 ـ 1769)، وقد أصبح اسمه يعني الشاعر الأخرق الدعيّ.

غلى الدم في عروقي.

سألته، وأنا لا أكاد أستطيع كظم غيظي:

ـ لماذا ترى فيها هذا الرأي؟

فأجاب وهو يبتسم ابتسامة خبيثة:

ـ لأنني أعرفها بالتجربة!

فصرخت في حنق شديد:

ـ كاذب. وقح.

فامتقع لون شفابرين.

قال وهو يشدّ على ذراعي:

ـ لن يمر هذا الأمر بسلام. إنني أدعوك إلى المبارزة، وأرجو أن تستجيب الدعوة!

ـ كما تشاء، وفي أي وقت تشاء.

قلت ذلك وأنا أشعر بسرور كبير.

كنت على استعداد في هذه اللحظة لأن أمزّقه إرباً.

ومضيت فوراً إلى إيفان أجناتتش، فرأيت بيده إبرة، لأن الآمر كلّفه بترتيب تخزين الكمأة مؤونة للشتاء.

قال حين رآني:

ـ آ. بترو أندرفتش. أهلاً وسهلاً. هل أستطيع أن أعرف سبب تشريفك إياي بالزيارة؟

فذكرت له ببضع كلمات أنني تشاجرت منذ هنيهة مع ألكسي إيفانتش، وأنني أرجوه أن يكون، هو إيفان أجناتتش، شاهدي في المبارزة فأصغى إلى كلامي بانتباه شديد، وهو يحدّق فيَّ بعينه الوحيدة.

قال مجمجماً:

ـ تريد أن تقول إنك تنوي أن تغمد سيفك في جسمه، وأنك تريد أن أحضر هذا بصفتي شاهداً؟ أهذا ما أردت أن تقوله، إن جاز لي أن أطرح هذا السؤال؟

ـ نعم.

ـ إسمع يا بترو أندرفتش، ما هذا الكلام الفارغ؟ لقد تشاجرت مع ألكسي إيفانتش! يا لها من فاجعة!! إن الألفاظ يا بني لا تقتل. إن كان قد شتمك فاشتمه! وإن كان قد صفعك على وجهك، فاصفعه على أذنيه مثنى وثلاث، ثم تفترقان، وواجبنا نحن بعد ذلك أن نصلح بينكما! إما أن يقتل المرء قريبه فاللهم لا! ثم إن الأمر يهون إذا انتصرت أنت. إنني لا أحب ألكسي إيفانتش، هذا، عفا الله عنه! ولكن أية فاجعة نمنى بها إذا انتصر هو عليك وأغمد سيفه فيك؟ من ذا الذي يكون قد غُرر به عندئذ، إن جاز لي أن أسأل هذا السؤال؟

لم يستطع منطق الملازم الطيب أن يزعزع ما عزمت عليه، وأصررت على رأيي.

قال إيفان أجناتِتش:

ـ لك ما تشاء. إفعل ما يبدو لك. ولكن ما حاجتك إلى شاهد؟ فيم يفيدك هذا؟ يا لها من معركة عجيبة! شيء جميل!

إن جاز لي أن أقول ذلك! لقد رأيت معارك أخرى كثيرة، بحمد الله... تقاتلت مع الأتراك والسويديين!

وحاولت أن أوضح له وظائف الشاهد بكل الوسائل، إلا أن إيفان أجناتتش لم يستطع أن يفهمني.

قال أخيراً:

ـ إذا أردت أن أتدخل في هذا الأمر فلعل الأحسن أن أمضي إلى

إيفان كوزمتش أخبره بأن ثمة أمراً مخالفاً لمصالح الدولة يدبّر في هذا المكان، ولا شك أن حضرة الآمر سيتّخذ عندئذ ما ينبغي اتخاذه من إجراءات.

فخفت، وتوسّلت إليه أن لا يخبر الآمر بذلك، ولم أستطع إقناعه إلا في كثير من العناء، فقطع على نفسه عهداً بأن لا يخبر الآمر، وقررت أن أدعه وشأنه.

وقضيت السهرة، على عادتي، في بيت الآمر، حتى لا أثير أي ارتياب، وحتى أتحاشى الأسئلة الفاضحة. وحاولت أن أظهر مرحاً طليقاً، ولكن أعترف بأنني لم أستطع أبداً أن أكون هادئاً ذلك الهدوء الذي يعتز به معظم الذين يكونون في مثل حالتي. كنت في ذلك المساء أفيض حباً وحناناً. وأعجبتني ماريا إيفانوفنا أكثر من أي وقت مضى، ثم تصورت أن لقاءنا هذا المساء قد يكون اللقاء الأخير، فأضفى عليها هذا كثيراً من الفتنة المؤثرة. وجاء شفابرين. فانتحيت به جانباً أبلغه نتيجة حديثي مع إيفان إجناتتش.

قال في جفاف وخشونة:

ـ ما حاجتنا إلى شهود؟ سنستغني عن الشهود.

عزمنا أمرنا، واتفقنا على أن تكون المبارزة في صباح الغد قبل الساعة السابعة، وراء البيادر غير بعيد عن الحصن. وقد اصطنعنا أثناء الحديث هيئة ودّية جداً، حتى أن إيفان إجناتتش حين رآنا، لم يملك أن يمنع نفسه عن الهتاف مسروراً.

قال وقد فاض وجهه بشراً:

ـ مرحى! لتسويةٌ سيئة خير من مبارزة حسنة! ما فائدة الشرف حين يُبقر البطن!

فقالت الآمرة وهي تجر الخرائط إلى ركن من الغرفة:

ـ ماذا تقول يا إيفان إجناتتش؟ إنني لم أفهم.

فلما رآني إيفان إجناتتش أجهِّم وجهي، تذكر وعده فاضطرب ولم يعرف بم يجيب، فهبَّ شفابرين إلى نجدته قائلاً:

ـ إن إيفان إجناتتش يهنئنا على المصالحة.

ـ ومع من تشاجرت يا بني؟

ـ لقد تشاجرنا أنا وبترو أندرفتش مشاجرة عنيفة.

ـ لماذا؟

ـ أوه، بسبب تافه، بسبب أغنية، يا فاسيليسا بيجوروفنا.

ـ يا له من سبب وجيه للمشاجرة! أغنية! وكيف حدث ذلك؟

ـ لقد ألّف بترو أندرفتش منذ مدة قصيرة أغنية، وأنشدني إياها هذا الصباح، فأخذت أنا أدندن أغنيتي المفضَّلة:

يا ابنة الضابط الرئيس

لا تتجولي عند منتصف الليل!

فلم يرق هذا لبترو أندرفتش، فغضب واحمرّ وجهه، إلا أنه لم يلبث أن فهم أن كل إنسان حرّ في أن يغني ما يحلو له غناؤه. ووقف الأمر عند هذا الحد.

كادت وقاحة شفابرين أن تخرجني عن تصبّري وهدوئي، ولكن لم يفهم أحد غيري غمزاته الخبيثة، أو على الأقل لم ينتبه إليها أحد. وانتقل الحديث من الأغاني إلى النظَّامين بوجه عام، فذكر الآمر أنهم جميعاً أناس طائشون سكّيرون، ونصحني باسم الصداقة أن أدع الشعر، فالشعر لا يتفق مع الخدمة العسكرية ولا يفضي إلى خير.

كان وجود شفابرين ثقيلاً على نفسي إلى حدّ لا يطاق، فاستأذنت الآمر وأسرته بالذهاب، وعدت إلى منزلي، فتفقدت سيفي،

وفحصت حدَّه، ثم نمت بعد أن أمرت سافلتش أن يوقظني قبل الساعة السابعة.

وفي الساعة المعينة كنت وراء البيادر، وما هي إلا برهة وجيزة حتى ظهر شفابرين. قال:

ـ لنسرع، قبل أن يأتي أحد.

فخلع كل منا بدلته العسكرية، وما كدنا ننتضي سيفينا حتى رأينا إيفان إجناتتش يظهر من وراء أحد البيادر يصحبه خمسة جنود من مشوَّهي الحرب، ثم يأمرنا بأن نتبعه إلى منزل الآمر. كان لا بد لنا من أن نطيع، فسرنا يحيط بنا الجنود، ويتقدمنا إيفان إجناتتش يسير بخطى الظافر وقد اكتسى وجهه هيئة جادة وقورة.

وصلنا إلى بيت الآمر، ففتح إيفان إجناتتش الباب وقال بصوت فخم: «ها هما»، فأقبلت علينا فاسيليسا بيجوروفنا تقول:

ـ يا إلهي! ما هذا؟ أجريمة قتل في حصننا؟ إيفان كوزمتش، إسجنهما حالاً! بترو أندرفتش، ألكسي إيفانتش، إليَّ بسيفيكما فوراً. هات سيفك، هات سيفك! بالاشكا، خذي هذين السيفين إلى المستودع. بترو أندرفتش، ما كنت أتوقع منك هذا! هذا يليق بألكسي إيفانتش الذي طرد من الحرس لارتكابه جريمة قتل، وهو ملحد لا يؤمن بالله، ولكن أنت؟ هل تريد أن تقتفي أثره؟

وبدا على إيفان كوزمتش أنه يوافق زوجته كل الموافقة. قال:

ـ فاسيليسا بيجوروفنا على حق، إن القانون العسكري يمنع المبارزات منعاً باتاً.

وفي أثناء ذلك كانت بالاشكا قد أخذت السيفين وحملتهما إلى المستودع، ولم أستطع أن أحبس ضحكي، إلا أن شفابرين احتفظ بجده، وقال يخاطب الآمرة بجفاف:

ـ رغم ما أكنه لك من احترام، فإنني لا أستطيع أن أعفي نفسي من لفت نظرك إلى أنك مخطئة في الاهتمام بهذا الأمر دعي إيفان كوزمتش يتصرف على النحو الذي يراه، فالقضية لا تعني أحداً غيره، وليس لأحد أن يتدخل فيها سواه.

ـ ولكنك تعلم يا بني أن الزوج والزوجة جسم واحد وروح واحد؟ وأنت يا إيفان كوزمتش، ماذا تنتظر؟ هيَّا إسجن كلاً منهما في مكان، وليصوما إلا عن الخبز والماء، إلى أن يثوبا إلى رشدهما، فيفرض عليهما الأب جراسيم الكفارة، فيطلبا عفو الله ومغفرة البشر.

لم يعرف إيفان كوزمتش بم يجيب. وكانت ماريا إيفانوفنا شاحبة الوجه جداً. ثم هدأ الجو شيئاً بعد شيء، وهدأت الآمرة، وأجبرتنا على أن نتعانق، وردّت إلينا بالاشكا السيفين، فخرجنا من بيت الآمر متصالحَيْن في الظاهر. وصحبنا إيفان إجناتتش.

قلت له بصوت خشن:

ـ ألا تستحي؟ تشي بنا إلى الآمر، بعد أن قطعت على نفسك عهداً بأن تسكت؟

فأجاب قائلاً:

ـ أقسم أنّي لم أقل لإيفان كوزمتش شيئاً، ولكن فاسيليسا بيجوروفنا أكرهتني إكراهاً على مكاشفتها بالأمر، وهي التي اتخذت هذه الإجراءات دون أَن ترجع إلى الآمر. على أنني أحمد الله أن الأمر انتهى على هذا النحو.

قال هذا، ثم دخل إلى بيته وتركنا وحدنا.

قلت لشفابرين:

ـ لا يمكن أن يقف الأمر عند هذا الحد!

فأجاب:

ـ طبعاً. ستدفع من دمك ثمن الإهانة التي وجهتها إليّ... ولكن أغلب الظن أنهم سيراقبوننا، فلا بد أن نخادعهم بضعة أيام. عمتم مساء.

وافترقنا كأن لم يحدث شيء.

فلما عدت إلى بيت الآمر جلست على عادتي إلى جانب ماريا إيفانوفنا. لم يكن إيفان كوزمتش في البيت، وكانت فاسيليسا بيجوروفنا مشغولة بأعمال المنزل، فأخذنا نتحادث بصوت خافت، ولامتني ماريا إيفانوفنا لوماً رقيقاً على المخاوف التي سببتُها للجميع بتشاجري مع شفابرين. قالت:

ـ كاد يُغمى عليَّ حين بلغني أنكما تنويان المبارزة. ما أعجب الرجال! إنهم مستعدون، بسبب كلمة قد ينسونها بعد أسبوع، لأن يقتل بعضهم بعضاً، فيضحوا بحياتهم، وبسعادة أولئك الذين... على أنني واثقة من أَنك لست الذي أثار المشاجرة... أعتقد أن ألكسي إيفانتش هو المذنب.

ـ لماذا تظنين هذا يا ماريا إيفانوفنا؟

ـ لأنه... لا يكف عن الهزء والسخرية. إنني لا أحب ألكسي إيفانتش. إنني أكرهه. والغريب أنني أخشى دائماً أن لا أعجبه... إنه ليقلقني أن لا أنال إعجابه.

ـ وهل تعتقدين يا ماريا إيفانوفنا، أنك تعجبينه؟

قالت:

ـ أعتقد أنني أعجبه.

ـ من أين جاءك هذا الاعتقاد؟

ـ لأنه طلب يدي.

ـ طلب يدك؟ متى؟

ـ في السنة الماضية، قبل وصولك بشهرين.

ـ ورفضت؟

ـ كما ترى! صحيح أن ألكسي إيفانتش رجل ذكي، وينتمي إلى أسرة محترمة، ويملك ثروة طائلة، ولكن يكفي أن أتصور أنني سأقبِّله أمام الناس في الكنيسة، حتى أقول: لا. لا. مستحيل. مستحيل.

هكذا فتحت كلمات ماريا إيفانوفنا عينيَّ، ووضّحت لي كثيراً من الأمور. فهمت لماذا يصرَّ شفابرين على الحط من شأنها بمثل هذا الخبث وهذه الوقاحة. لعله أدرك ما بيننا من عاطفة متبادلة. أكان يريد أن يفرّق بيننا؟ وبدت لي الكلمات التي أثارت المشاجرة أكثر دناءة، لأنني أصبحت لا أرى فيها مجرد سخرية فظة غليظة بل تهمةً باطلة عن سابق تصوُّر وتصميم. وازدادت رغبتي في معاقبة هذا الوقح، وانتظرت الفرصة المناسبة بصبر فارغ.

لم يطل انتظاري، ففي الغداة، بينما كنت أؤلف قصيدة رثائية وأقضم قلمي باحثاً عن قافية، قرع شفابرين نافذة غرفتي، فوضعت القلم، وحملت سيفي، وأدركته في الشارع. قال:

ـ علام الانتظار؟ ليس يراقبنا أحد. لنهبط إلى النهر. لن يزعجنا أحد هناك.

سرت وراءه. وبعد أن هبطنا منحدراً وعراً، وقفنا على ضفة النهر، واستللنا السلاح. إن شفابرين أحذق مني، ولكنني أقوى منه وأشجع. واستفدت من دروس في المسابقة أعطاني إياها مسيو بوپريه الذي كان في سابق أيامه جندياً. لم يتوقع شفابرين أن أكون خصماً خطراً إلى هذا الحد. وظللنا نتبارز مدة طويلة دون أن يصيب أحد منا الآخر بأذى. فلما لاحظت أخيراً أنه بدأ يضعف أخذت أهاجمه

بعنف حتى صار على شفا النهر، فإذا أنا أسمع صوتاً يناديني فجأة بصوت عال، فالتفتّ ورأيت سافلتش يعدو هابطاً المنحدر. . . في هذه اللحظة أحسست بألم قوي في الكتف الأيمن، ثم سقطت مغشيّاً عليّ.

الفصل الخامس

الحب

إيه أيتها الصبية الجميلة،
لا تتزوجي قبل الأوان،
أستنصحي أباك وأمك،
والأسرة كلها،
كوني عاقلة!
واجمعي مهراً قبل كل شيء!

«أغنية شعبية»

إن وجدت من هي خير مني نسيتني،
وإن وجدت من هي شر مني تذكرتني!

«كنياجنين»

حين أفقت من إغمائي ظللت مدة طويلة لا أستطيع أن أستجمع ذكرياتي، ولا أن أفهم ما حدث لي. رأيتني مضطجعاً في غرفة لا أعرفها. وكنت أشعر بضعف شديد. ورأيت سافلتش واقفاً أمامي وقد أمسك بيده شمعة، ورأيت أحد الناس يفك الضمادات التي تشدّ

كتفي وصدري، يفكها في كثير من الحذر. واتضحت أفكاري شيئاً بعد شيء، فتذكرت المبارزة، وأدركت أني جرحت. وفي هذه اللحظة سمعت الباب يُفتح.

ودمدم صوت يقول:

ـ كيف حاله الآن.

ارتجفت حين سمعت هذا الصوت.

أجاب سافلتش وهو يطلق من صدره زفرة حارة:

ـ ما زال كما كان. إنه فاقد وعيَه منذ خمسة أيام.

حاولت أن ألتفت، ولكنني لم أستطع. قلت في جهد ومشقة:

ـ أين أنا؟ من هنا؟

فاقتربت ماريا إيفانوفنا من السرير وانحنت عليَّ تسألني:

ـ كيف ترى نفسك الآن.

فأجبت بصوت ضعيف:

ـ الحمد الله! أهذا أنت يا ماريا إيفانوفنا. قولي لي. . .

ولم أستطع أن أُتِمَّ كلامي، وهتف سافلتش، وقد ظهرت في وجهه آيات الفرح:

ـ عاد إليه وعيه، عاد إليه وعيه. حمداً لك يا رب. آه! يا بترو أندرفتش، لشد ما أخفتني. خمسة أيام متواصلة!. . .

واعتقدت ماريا إيفانوفنا أن عليها أن تقطع حماسته فقالت متجهة إلى سافلتش:

ـ لا تكلمه كثيراً يا سافلتش. إنه ما زال ضعيفاً جداً.

ثم خرجت وهي تغلق الباب بلطف.

زحمت رأسي الأفكار! لقد كنت إذن في منزل الآمر، وجاءت ماريا إيفانوفنا تعودني. لقد أردت أن أطرح على سافلتش بعض

الأسئلة، إلا أن العجوز أخذ يهز رأسه، وسدّ أذنيه، فأغمضت عينيَّ آسفاً، وما لبثت أن نمت.

عندما استيقظت ناديت سافلتش، ولكن ماريا إيفانوفنا هي التي جاءت تلبي ندائي وحيّاني صوتها الملائكي. لا أستطيع أن أعبّر عن شعور الفرح الذي تملّكني في تلك اللحظة. وتناولت يدها أبللها بدموع الحنان، فلم تسحب ماريا يدها، وفجأة لامست شفتاها خدي، فأحسست قبلتها غضة دافئة معاً، وسَرَت في جسمي كله رعدة. قلت لها:

ـ عزيزتي ماريا إيفانوفنا، يا ذات القلب النبيل، هلاّ وافقت على أن تكوني زوجتي فأكون أسعد إنسان على وجه الأرض!

وكأنما ثابت إلى رشدها فقالت وهي تسحب يدها:

ـ كن هادئاً، أرجوك، إنك ما زلت في خطر، وقد يُنكأ جرحك، حافظ على نفسك، ولو من أجلي.

قالت ذلك، ثم خرجت، وتركتني في نوع من النشوة أشبه بالوجد. أحيتني السعادة. إنها تحبني، ستكون زوجتي.

ملكت عليَّ هذه الفكرة نفسي كلها.

أخذت صحّتي تتحسن منذ تلك اللحظة، وكان حلاق الفوج هو الذي يقوم على معالجتي، فلم يكن في الحصن طبيب آخر غيره. وأحمد الله على أنه لم يعقد الأمور، على أن شبابي قد عجَّلَ شفائي. كانت أسرة الآمر كلها تعنى بي، وأصبحت ماريا إيفانوفنا لا تتركني أبداً وطبيعي أن أنتهز أول فرصة مناسبة فأفاتحها في الأمر مرة أخرى طالباً يدها. هكذا فعلت، فأصغت ماريا إيفانوفنا إلى كلامي في صبر أشد من صبري، ثم اعترفت لي بحبها دون مواربة، وأضافت إلى ذلك أن أبويها يسرهما أن يرياها سعيدة. ثم أردفت تقول:

ـ ولكن فكر في الأمر. ألا تعتقد أن أبويك قد يعارضان؟ أطرقتُ أفكر. ما كنت أشك أبداً في أن أمي توافق. ولكنني تصورت، وأنا أعرف طبع أبي وأعرف نظرته إلى الأمور، تصورت أن حبي لن يؤثر فيه كثيراً، وأنه سيعدّه نزوة من نزوات الشباب، واعترفت لماريا إيفانوفنا بهذا بصراحة تامة، وقررت مع ذلك أن أكتب إلى أبي طالباً أن يوافق على زواجي وأن يباركه، مستعيناً في ذلك بكل ما أوتيته من بلاغة وقوة حجة. وأطلعت ماريا إيفانوفنا على هذه الرسالة، فوجَدَتْها مؤثّرة مقنعة حتى لم تشك في أن أبي سيوافق. لقد استسلمتْ للعاطفة الرقيقة التي يمليها عليها قلبها، ولكل ما في الشباب والحب من ثقة ورجاء.

وتصالحت مع شفابرين منذ الأيام الأولى من شفائي، ووبَّخني إيفان كوزمتش على اقترافي ذنب المبارزة قائلاً:

ـ كان ينبغي أن أسجنك يا بترو أندرفتش، لولا أنك قد عوقبت العقاب الذي تستحقه. أما ألكسي إيفانتش فهو الآن سجين في مخزن المؤونة، وسيفه محجوز لدى فاسيليسا بيجوروفنا، عسى أن يفكر ويندم على ما اقترفته يداه.

كنت أسعد من أن أحمل لخصمي حقداً أو ضغينة، فتشفّعت له، ووافق الآمر الطيب القلب، بعد أن استشار زوجته، على أن يطلق سراحه. وجاء شفابرين يعبّر لي عن عميق أسفه على ما وقع بيننا، واعترف بأنه هو المخطئ، وسألني أن أنسى الماضي. ولأنني امرؤ غير حقود أبداً، غفرت له المشاجرة والجرح أيضاً، غفرتهما صادقاً كل الصدق، لأنني عزوت الكلمات السيئة التي قالها في حق ماريا إيفانوفنا إلى ما يشعر به العاشق من حقد حين يُصَدّ، وانتحلت له الأعذار بكرم وسخاء.

وما لبثت أن عوفيت وأصبحت قادراً على أن أعود إلى بيتي. وكنت أنتظر جواب الرسالة بصبر فارغ، دون أن أجرؤ على كبير رجاء، محاولاً أن أخنق ما يقوم في نفسي من تطيّر حزين، ولم أكن قد صارحت فاسيليسا بيجوروفنا وزوجها في الأمر، إلا أن طلبي ما كان له أن يفاجئهما، لأننا، أنا وماريا، لم نكن نتخفّى عنهما، وكنا على يقين من موافقتهما قبل أن نطلبها.

وفي ذات صباح دخل عليّ سافلتش يحمل رسالة بيده، فسارعت أتناولها بنوع من الرّهبة، ورأيت العنوان مكتوباً بخط أبي، فتهيأت لأمر خطير، ذلك أن أمي هي التي تكتب إليَّ عادة، أما أبي فيكتفي بإضافة بضعة أسطر في آخر الصفحة.

وظللت مدة طويلة أقرأ العنوان الفخم، دون أن أجرؤ على فضّ الرسالة:

إلى إبني بترو أندرفتش جرينيف
في حصن بيلوجورسكايا
إقليم أورنبورغ

كنت أحاول أن أرى في الخط الحالة النفسية التي كان أبي فيها حين كتب هذا العنوان. وقررت أخيراً أن أفضّ الرسالة.

وأيقنت منذ قراءة الأسطر الأولى أن الحال على أسوأ ما يكون. إليكم ما قرأته:

«إبني بترو،

«وصلتنا رسالتك في الخامس عشر من الشهر الحالي، وفيها تطلب إلينا الموافقة على زواجك بماريا بنت إيفان ميرونوف، ومباركة هذا الزواج، فاعلم أنني أنوي أن أمنع عنك الموافقة والمباركة كليهما، بل أضيف إلى ذلك أنني فكرت في أن أقبض

عليك، رغم أنك في رتبة ضابط، وأن أعطيك الدرس الذي يُعطى لصبية صغار، ذلك لأنك برهنت فعلاً على أنك ما زلت غير أهل لحمل السيف الذي عُهد به إليك لتدافع عن الوطن لا لتُقْتَلَ في مبارزة مع أناس تافهين مثلك. سأكتب بلا إبطاء إلى آندره كارلوفتش أطلب إليه أن ينقلك من الحصن إلى أبعد مكان ممكن، عسى أن تنسى هنالك حماقاتك وسخافاتك. حين علمت أمك بنبأ المبارزة والجرح سقطت مريضة من الحزن والكرب ولزمت فراشها. كيف أنت الآن؟ أسأل الله أن يردك إلى الصراط المستقيم، وإن كنت لا أجرؤ على أن أستغفره لك.

أبوك آ.ح.

أيقظت هذه الرسالة في نفسي جميع أنواع العواطف: آلمتني هذه العبارات القاسية يرسلها أبي في سخاء، وبدا لي هذا الاحتقار الذي يشتمل عليه كلامه عن ماريا إيفانوفنا استهتاراً بها لا تستحقه. وصُعقت حين تصورت أنني سأترك الحصن في القريب، وأحزنني مرض أمي أكثر من أي شيء آخر، وحقدت على سافلتش حقداً قاتلاً، لأنه هو الذي أبلغ أبويّ بنبأ المبارزة من غير شك. فمضيت أجتاز إليه الغرفة الضيقة حتى وقفت أمامه، فألقيت عليه نظرة مهدّدة متوعّدة. قلت:

ـ لم يكفك أنني جُرحت وظللت شهراً كاملاً على شفا القبر بسببك، فأردت أيضاً أن تقتل أمي.

صعق سافلتش ذعراً ورعباً، وأوشك أن ينفجر منتحباً. قال:

ـ ماذا تقول يا سيدي؟ أبسببي إذن إنما جُرحت؟ يعلم الله أنني كنت أركض لأحميك معرضاً صدري لسيف ألكسي إيفانتش، ولم

يمنعني عن ذلك إلا الشيخوخة اللعينة ثم ماذا صنعتُ لأمك؟

ـ ماذا صنعتَ لها؟ من ذا الذي طلب إليك أن تكتب واشياً بي؟ من الذي طلب إليك أن تتجسس عليّ؟

فقال سافلتش وهو يبكي بكاءً سخياً:

ـ أنا وشيت بك؟ يا إلهي! ولكن إقرأ ماذا كتب إليَّ سيدي والدك! إقرأ فتعلَم هل وشيت بك!

قال هذا، واستلّ من جيبه رسالةً، فقرأ لي ما يلي:

«ألا تستحي أيها الكلب الهرم؟ لماذا لم تكتب إلي شيئاً عن بترو أندرفتش، مع أنني أمرتك بأن تنقل إليّ أنباءه؟ إن الغرباء هم الذين يتولون إبلاغي حماقاته. أهكذا تقوم بواجباتك، وتنفذ أوامر أسيادك؟ عقاباً لك على أنك أخفيت الحقيقة، وسهلت حماقة سيدك الشاب، سأرسلك ترعى الخنازير، أيها الكلب الخرف! إنني آمرك بأن تكتب إليَّ، فور وصول هذه الرسالة إليك، دون إبطاء، عن أنباء صحته. لقد قيل لي أنه شُفي. أذكر لي أين كانت الإصابة، وهل عولج الجرح معالجة كافية!».

كان واضحاً إذن أن سافلتش ليس ملوماً، وأن ظنوني في غير محلها. فسألته أن يغفر لي هذه الإهانة التي وجهتها إليه دون أن يستحقها، إلا أن كلامي لم يستطع أن يعزّيه.

قال:

ـ أهكذا إذن؟ أهكذا يكافئني أسيادي؟ كلب هرم، راعي خنازير... وأنا السبب في جرحك؟ كلا يا عزيزي! لست أنا السبب. السبب هو ذلك «المسيو» اللعين الذي علمك هزّ السيوف والركل بالأرجل، كأن ذلك هو الوسيلة التي يحفظ بها الإنسان نفسه من الأذى! أكان ضرورياً استئجار هذا «المسيو» وتبديد المال سُدى!...

تُرى من ذا الذي كلف نفسه إذن عناء إطلاع أبي على سلوكي؟ أهو القائد اللواء؟ ولكن القائد لا يبدو مهتماً بشؤوني، ثم إن إيفان كوزمتش لم ير من الضروري أن يقدم له تقريراً عن هذه المبارزة.

رحت أخمّن وأرجم في الغيب، وانصبت شبهاتي على شفابرين. إنه الشخص الوحيد الذي قد يستفيد من الوشاية بي، إذ يترتب عليها أن أترك الحصن وأنفصل عن أسرة الآمر.

مضيت إلى ماريا إيفانوفنا لأطلعها على كل شيء، فلقيتها على درج الباب. قالت حين رأتني:

ـ ماذا حدث لك؟ إنك ممتقع اللون جداً.

قلت وأنا أمدّ لها رسالة أبي:

ـ لقد انتهى كل شيء.

فامتقع لونها هي الأخرى حتى إذا فرغت من قراءة الرسالة، مدتها إليّ بيد مرتجفة وهي تقول:

ـ هذه إرادة القدر. إن أبويك لا يحباني. لتكن مشيئة الله. إنه أعلم بما نحن في حاجة إليه. وما دام الأمر كذلك، فكن سعيداً أنت على الأقل.

فهتفت وأنا أمسك يدها:

ـ لن يكون هذا أبداً. إنك تحبينني، وأنا مستعد لكل شيء. لنذهب إلى أبويك نرتمي على أقدامهما. إنهما من الناس البسطاء، لا من الناس المزهوين القاسية قلوبهم. سيوافقان على زواجنا، ويباركانه، فنتزوج... وأنا واثق من أننا نستطيع في المستقبل أن نلين إرادة أبي، وستكون أمي معنا تدافع عنا، فيغفر لنا الخروج على إرادته!

فأجابت ماشا تقول:

- كلا يا بترو أندرفتش. لن أتزوجك قبل أن نحصل على مباركة أبويك، وإلا كان الشقاء حظنا من الحياة. لنخضع لمشيئة الله. وإذا وجدت خطيبة أخرى، إذا أحببت فتاة أخرى، سألتُ الله أن يمدك بعونه، يا بترو أندرفتش، أما أنا، فأمضي... في سبيلي...

وتفجرت الدموع من عينيها. وتركتني وحدي. أردت أن أتبعها إلى داخل البيت، ولكنني شعرت أنني في حالة لا أستطيع معها أن أملك زمام نفسي، فرجعت إلى بيتي.

وفيما أنا غارق في أحلام بعيدة، إذا بسافلتش يقطع عليَّ تأملاتي وهو يمد إليَّ ورقة مطرزة بخطه ويقول:

- خذ يا سيدي وانظر بنفسك هل أنا واشٍ، وهل حاولت أن أفسد الجو بين سيدي الشاب وأبيه!

تناولت الورقة التي مدَّها إليَّ. إنها جواب سافلتش على الرسالة التي تلقاها من أبي. وها أنا ذا أنقلها هنا كلمةً كلمةً:

سيدي أندره بتروفتش، أبانا الرحيم:

«تلقيت كتابكم اللطيف، الذي حلا لكم فيه أن تبدوا استياءكم من خادمكم، والذي تلومونني فيه على أنني لا أطيع أسيادي. لست بالكلب الهرم، يا سيدي، وإنما أنا خادمكم الأمين. إنني أنفذ أوامر أسيادي ولقد خدمتكم دائماً في حماسة إلى اليوم الذي ابيضّ فيه شعري تماماً. ولئن لم أكتب إليكم شيئاً بصدد جرح بترو أندرفتش، فما ذلك إلا لأنني لم أشأ أن أخيفكم في ما لا فائدة فيه. ولقد سمعت أن مولاتي أدوفسيا فاسيليفنا قد بلغت من الرعب أنها لزمت فراشها. إنني أدعو الله أن يرد إليها عافيتها. لقد جرح بترو أندرفتش في صدره، تحت عظم الكتف الأيمن على وجه الدقة، وكان عمق الجرح فركوكاً ونصف فركوك وقد نقلناه من ضفة النهر إلى منزل

الآمر، حيث عالجه هنالك ستيفان باماورونوف، حلاّق المنطقة. وإن بترو أندرفتش لهو الآن، بحمد الله، في تمام عافيته، ولا أنقل إليكم من أخباره إلا الحسن المطمئن. يقال إن رؤساءه راضون عنه، وأن فاسيليسا بيجوروفنا تعامله كأنه ابنها. ولئن وقع له هذا الحادث، فإن لكل جواد كبوة، والأخطاء الماضية لا تُذْهِب شرف الشجاع. لقد حلا لكم أن تكتبوا أنكم سترسلونني أرعى الخنازير. إنكم يا سيدي أحرار في عبيدكم تتصرفون فيهم كما تشاؤون. ولا يسعني في الختام إلا أن أحييكم ذليلاً.

خادمكم الأمين

أرخيب سافليف

لم أستطع أن أمنع نفسي عن الابتسام وأنا أقرأ رسالة العجوز الطيب. وكنت لا أشعر أن بي من القوة ما يمكنني من الإجابة بنفسي، فبدت لي رسالة سافلتش كافية لتطمين أمي.

وتغير حالي منذ ذلك اليوم تغيراً كبيراً، فإن ماريا إيفانوفنا أصبحت لا تكلمني تقريباً، وأصبحت تحاول جهدها أن تتحاشى لقائي، وأصبح بيت الآمر ثقيلاً على نفسي، ثم تعودت شيئاً بعد شيء على أن أبقى وحيداً في بيتي، ولامتني فاسيليسا بيجوروفنا في أول الأمر على ذلك، إلا أنها وقد رأت إصراري، تركتني وشأني. وأصبحت لا أرى إيفان كوزمتش، إلا حين يقتضي عملي ذلك، ولا ألقى شفابرين إلا في النادر القليل، ودون أن أجد في لقائه أية متعة، لا سيما وأنني لاحظت أنه يحمل لي كرهاً خفياً، وهذا ما أيد ظنوني وشبهاتي. صرت كمن اشمأزّ من الحياة كلها وهويت إلى كآبة قاتمة تزيدها الوحدة، وتغذيها البطالة. وكانت العزلة تزيد حرارة حبي،

فكنت أزداد ألماً وعذاباً يوماً بعد يوم، وفقدت الميل إلى القراءة وإلى كل شاغل أدبي، وأصبحت في حالة من الانهيار المرضي خشيت معه أحد شيئين: الجنون أو المجون. إلا أن حوادث لم تكن في الحسبان بثّت في نفسي على حين فجأة اندفاعة قوية مفيدة، كان لها في حياتي كلها تأثير عظيم.

* * *

الفصل السادس

الثورة

اسمعوا أيها الفتية البسطاء...

ما نقصه عليكم، نحن الشيوخ.

«أغنية»

قبل أن أشرع في سرد الأحداث الغريبة التي شهدتها، يجب عليّ أن أقول بضع كلمات عن حالة إقليم أورنبورغ في أواخر عام 1773.

كان يقطن هذا الإقليم الغني الواسع عدد من الأقوام هم إلى التوحش أقرب منهم إلى التمدن، لم يعترفوا بالسيادة الروسية إلا منذ عهد قريب. ولم تكن هذه الأقوام قد تعودت النظام وحياة الحضارة، وكانت طباعها لا تخلو من طيش وقسوة، وكانت تقوم بثورات كثيرة، فكان هذا كله يقتضي من جانب الحكومة رقابة متواصلة تلزمهم باحترام الدولة والخضوع للقانون، فأقامت الدولة حصوناً حيث بدا ذلك ضرورياً، وعيَّنت للحصون في الغالب جنوداً من القوزاق يقطنون ضفاف اليائيق منذ مدة طويلة. إلا أن هؤلاء المحاربين الذين اعتمدت عليهم الدولة لإقامة دعائم الهدوء والأمن في البلاد، كانوا هم أنفسهم رعايا طائشين خطرين، فأشعلوا الثورة في عاصمتهم عام 1772 وكان

الدافع إلى هذه الثورة ما اتخذه اللواء تراونبرج من إجراءات قاسية لإخضاع فرقة اليائيق للنظام، فقتلوا تراونبرج قتلاً وحشياً، وأحدثوا في القيادة ما شاء لهم هواهم من تبديلات، إلا أن الفتنة أخمدت أخيراً وأُنزلت في الثائرين عقوبات هائلة.

كل ذلك قد وقع قبل وصولي إلى بيلوجورسكايا بقليل. وكان كل شيء قد عاد إلى النظام، في الظاهر على أقل تقدير. وقد أسرفت السلطات في تصديق النوبة الكاذبة التي يظهرها هؤلاء القوزاقيون، على حين أن الحقد ما يزال يملأ نفوسهم، فهم ينتظرون الفرصة المواتية لاستئناف أعمال العصيان والفوضى.

وبعد، فلنعد إلى قصتنا.

في ذات مساء (كان ذلك في أول تشرين الثاني من عام 1773) بينما كنت واقفاً إلى نافذتي وحيداً، أستمع إلى صفير الريح وأتأمل السحب التي تغشى القمر، جاءني أحدهم يقول إن الآمر يستدعيني فذهبت إليه على الفور، فوجدته مجتمعاً بشفابرين وإيفان إجناتتش والوكيل القوزاقي، ولم تكن بينهم فاسيليسا بيجوروفنا ولا ماريا إيفانوفنا. استقبلني الآمر وقد بدا عليه القلق والاضطراب، ثم أغلق الباب وطلب إلى الجميع أن يجلسوا، إلا الوكيل ظل واقفاً إلى جانب الباب، ثم أخرج الآمر من جيبه ورقة وهو يقول:

ـ هناك خبر هام، يا حضرات الضباط. إسمعوا ماذا كتب إليّ القائد اللواء.

«إلى الرئيس ميرونوف، آمر حصن بيلوجورسكايا،

مكتوم.

أرسل إليكم هذا الكتاب لأعلمكم أن قوزاقياً من الدون، يُدعى

إمليان بوجاتشيف، قد هرب من السجن، واقترف وقاحة لا تغتفر إذ انتحل اسم المرحوم الإمبراطور بطرس الثالث، وجمع عصابة من المجرمين، فدعا جنود اليائيق إلى الثورة، واستولى على عدة حصون حتى الآن وخرّبها، وأثار القتل والنهب والسلب في كل مكان. لذلك يجب عليكم، يا حضرة الرئيس، لدى وصول هذه الرسالة إليكم، أن تتخذوا الإجراءات اللازمة لرد هذا اللص المدَّعي، ولإفنائه إذا أمكن، متى بدا له أن يهاجم الحصن الذي عُهد به إلى كفاءتكم الممتازة».

ـ الإجراءات اللازمة!

قال الآمر ذلك وهو يرفع نظارتيه ويطوي الورقة. ثم أردف يقول:

ـ الكلام سهل!... إن هذا الكلب قوي فيما يظهر، ونحن لا نملك إلا 130 رجلاً، فيما عدا القوزاق الذين لا يعتمد عليهم كثيراً، لا تؤاخذني يا مكسيمتش (هنا ضحك الوكيل). على أنه لا بد من العمل، يا حضرات الضباط، كونوا على أهبة من الأمر، ونظموا الرقابة ودوريات الليل، وأنت يا مكسمتش عليك بمراقبة أصحابك القوزاق مراقبة جيدة، وليُفحص المدفع، ولينظف تنظيفاً جيداً. ولكن قبل كل شيء، إياكم وإذاعة النبأ، حافظوا على السرّ محافظة مطلقة، حتى لا يعرف الأمرَ أحد من الحصن قبل الأوان.

قال الآمر هذا الكلام، ثم أذن لنا بالانصراف، فخرج يصحبني شفابرين، وتحدثنا فيما سمعنا. قلت:

ـ ما رأيك؟ كيف ينتهي الأمر فيما تعتقد؟

فأجاب شفابرين قائلاً:

ـ الله أعلم، على أن الأمر حتى الآن ليس بالخطير. أما إذا...

وأطرق فجأة يفكر، ثم أخذ يصفِّر لحناً فرنسياً وهو ذاهل.

ذاع نبأ ظهور بوجاتشيف في الحصن، رغم جميع ما اتخذنا من

احتياطات لكتمانه. ما كان لإيفافان كوزمتش، رغم الاحترام العظيم الذي يحمله لزوجته، أن يفضي لها بسر من أسرار العمل على أي حال من الأحوال، لذلك ما كاد يتلقى رسالة القائد اللواء حتى تصرف بحكمة ولباقة ليصرف فاسيليسا بيجوروفنا من البيت، فزعم لها أن الأب جراسيم قد تلقى من أورنبورغ أنباء خارقة لا يريد أن يبوح بها أبداً، فما إن سمعت فاسيليسا بيجوروفنا ذلك حتى تملكتها رغبة قوية في زيارة الأب جراسيم، واقترح عليها إيفان كوزمتش أن تصطحب ماشا دفعاً للملل أثناء الطريق.

وما إن ذهبت فاسيليسا بيجوروفنا وأصبح سيدَ الأمر وحده أرسل يستدعينا على الفور، وسجن بالاشكا في المستودع، تحاشياً لكل ما قد يفشي السر.

وعادت فاسيليسا بيجوروفنا إلى البيت دون أن تستطيع استدراج الأب جراسيم إلى الإفضاء بأي شيء، ثم ما لبثت أن علمت أن اجتماعاً قد عُقد أثناء غيابها في البيت وأن بالاشكا سُجِنَت في المستودع. فأدركت أن زوجها قد خدعها، وأخذت تستدرجه، إلا أن إيفان كوزمتش كان قد تهيأ لهجومها، فلم يضطرب أبداً، وأجاب بصوت هادىء على استجواب زوجته قائلاً:

ـ إسمعي يا عزيزتي. إن السكان لم يجدوا خيراً من القش يحرقونه في مدافئهم، ولما كان هذا خطراً جداً، فقد أصدرت أمراً صارماً بأن لا يُسمح لهم بذلك بعد الآن وأن يستغنوا عن القش بالحطب.

ـ ولماذا سجنت بالاشكا؟ لماذا أجبرت البنت المسكينة على أن تبقى في المستودع إلى أن عدنا؟

لم يكن إيفان كوزمتش قد تهيأ لهذا السؤال، فارتبك وتلجلج وقال كلاماً لا ترابط فيه ولا منطق. ففهمت فاسيليسا بيجوروفنا أنه

يضللها، ولما كانت تعرف أنها لن تستطيع أبداً أن تستدرجه إلى البوح بشيء، فقد غيرت الحديث، وتكلمت عن الخيار المخلّل، ذاكرةً أن امرأة القس تحضِّره بطريقة خاصة، وقضت الليل كله لا يعرف النوم إلى جفنيها سبيلاً، إلا أنها لم تستطع أن تحزر ما يضمر زوجها من أشياء ينبغي أن لا يطلعها عليها.

وفيما هي عائدة من الصلاة في اليوم التالي، رأت إيفان إجناتتش يُخْرِجُ من المدفع خرقاً، وحصى، ونشارة، وعظاماً، وأنواعاً من الصوالة، مما حشاه به الأطفال.

فتساءلت الآمرة:

«ما معنى هذه الاستعدادات؟ أيتوقعون هجوم الكرخيز؟ ولكن أكان يمكن أن يكتم عني إيفان كوزمتش هذا؟»

ثم استدعت إيفان إجناتتش، وهي تنوي أن تستدرجه قطعاً وأن تعلم هذا السرّ الذي يثير فضولها النسوي. بدأت في أول الأمر تبدي له بعض الملاحظات المتعلقة بشؤون البيت، كما يفعل القاضي حين يبدأ بأن يطرح على المتهم أسئلة من شأنها أن تخدّر يقظته. ثم بعد أن صمتت لحظة من الوقت أطلقت من صدرها زفرة عميقة، وهزت رأسها، وقالت متنهدة:

ـ يا إلهي، إن الأخبار سيئة جداً، تُرى ما الذي سيحل بنا؟

فأجاب إيفان إجناتتش قائلاً:

ـ إن الله رحيم، يا عزيزتي، ولدينا عدد كاف من الجنود، وذخيرتنا من البارود وفيرة، وقد نظفت المدفع، ولعلنا نستطيع أن نقاوم بوجاتشيف! من أعانه الله فلا غالب له.

فسألت الآمرة:

ـ ولكن من هو بوجاتشيف هذا؟

هنا أدرك إيفان إجناتتش أنه قال أكثر مما كان ينبغي أن يقول، فعض على شفته، ولكن سبق السيف العذل... فأجبرته فاسيليسا بيجوروفنا على أن يعترف لها بكل شيء، بعد أن قطعت على نفسها عهداً أن لا تنقل هذه الأخبار إلى أحد.

ولقد برّت بوعدها، فلم تتحدث بالأمر إلى أحد، اللهم إلا زوجة القس، وذلك لأن بقرة زوجة القسّ تهرب دائماً إلى المراعي، ومن الممكن والحالة هذه أن يقبض عليها هؤلاء اللصوص.

وما هو إلا وقت قصير حتى أصبح الناس لا يتحدثون عن شيء غير بوجاتشيف، وانقسمت الآراء، وأصدر الآمر أمره إلى الوكيل أن يمضي يتسقط الأخبار في الحصون والقرى المجاورة، وعاد هذا بعد يومين يقول إنه رأى في السهوب على بعد 60 فرسخاً من الحصن نيراناً كثيرة، وأن الباشكير قد رووا له أن فرقاً مجهولة تتقدم بقوى عظيمة، وأضاف إلى ذلك أنه لا يستطيع أن يؤكد شيئاً على كل حال، لأنه لم يجرؤ أن يبعد في توغله.

ولوحظت حركة قوية بين قوزاق الحصن: فكانوا يتجمعون في الشوارع، يتحدّثون ويتشاورون، ثم يتفرقون متى اقترب منهم خفير أو جندي. وقد بثّ الآمر فيهم عيوناً تترصدهم، فجاءه يولائي، وهو كلموكي متنصّر، بنبأ خطير هو أن أقوال الوكيل كاذبة، وأن هذا القوزاقي المخادع قد ذكر لرفاقه أنه ذهب إلى الثوار وقابل رئيسهم، وأن رئيسهم هذا قد سمح له بأن يقبّل يده، وأنه تحدث إليه مدة طويلة. فما لبث الآمر أن أوقف الوكيل، وعيَّن يولائي في محله. فاستقبل القوزاق هذا النبأ باستياء واضح، وتذمروا منه جهاراً، حتى أن إيفان إجناتتش الذي عهد إليه الآمر بتنفيذ أمره قد سمع بأذنيه تهديدات من هذا القبيل: «إنتظر قليلاً، أيها الجرذ، فسيأتي دورك،

وتحين ساعتك».

وكان الآمر يريد أن يستجوب سجينه في اليوم نفسه، إلا أن السجين فرَّ، بمعونة أنصاره في أغلب الظن.

ووقع حادث جديد فاقم مخاوف الآمر وقلقه. لقد اعتُقل أحد الباشكير وهو يحمل منشورات تحضّ على الثورة، فأَراد الآمر في هذه المناسبة أن يجمع ضباطه مرة أخرى، وأن يُبعد من أجل ذلك فاسيليسا بيجوروفنا من البيت بانتحال حجة مناسبة، ولما كان إيفان كوزمتش من أَصرح الناس وأكثرهم استقامة، فإنه لم يجد وسيلة أخرى غير التي عمد إليها في المرة الأولى والتي كانت ناجحة موفقة، فقال لامرأته وهو يتنحنح:

ـ إسمعي يا فاسيليسا بيجوروفنا. يقال إن الأب جراسيم قد تلقى من المدينة...

فقاطعته الآمرة تقول:

ـ كفى كذباً... إنك تريد أن تجمع ضباطك لتكلمهم أثناء غيابي في أمر إمليان بوجاتشيف. لن تخدعني في هذه المرة.

فرقَّت عينا إيفان كوزمتش وقال:

ـ إسمعي إذن يا عزيزتي. ما دمت على علم بالأمر ففي وسعك أن تبقي، وسنتداول في الموضوع بحضورك.

ـ هكذا يجب أن تتصرف. لستَ أنت من يستطيع المكر! هيَّا استدع الضباط.

واجتمعنا مرة أخرى، فقرأ علينا إيفان كوزمتش، بحضور زوجته، مطالب بوجاتشيف، وقد دبّجها قوزاقي يكاد يكون أمياً. إن هذا اللص يعلن عن نيته في زيارة حصننا ويدعو القوزاق والجنود إلى الالتحاق به، ويحاول إقناع الرؤساء بأن لا يبدوا أية مقاومة،

ويهددهم بالتعذيب إن هم قاوموا. وقد كُتبت هذه المطالب بأسلوب فظ، ولكنه جذاب لا بد أن يحدث تأثيراً خطراً في أناس بسطاء.

هتفت الآمرة تقول:

ـ يا له من حقير! أهذا ما يدعونا إذن إليه: أن نهبّ إلى استقباله، ونلقي بأعلامنا بين قدميه. خاب فأل ابن الكلب! ألا يعلم أننا نخدم البلاد منذ أربعين عاماً، وأننا قد رأينا كثيراً من أمثاله؟ هل هناك حقاً من آمري المواقع من استجاب لدعوة هذا اللص، وخضع لأمره؟

فأجاب إيفان كوزمتش:

ـ لا أعتقد أن شيئاً من هذا قد حصل! ولكن يقال إن اللص قد استولى حتى الآن على عدة حصون.

فقال شفابرين:

ـ ذلك لأنه قوي حقاً.

قال الآمر: «هذا ما سنراه».

ثم أردف: فاسيليسا بيجوروفنا، أعطيني مفتاح الشونة. إيفان إجناتتش عليَّ بالباشكيري، وقل ليولائي أن يأتيني بالأسواط.

فقالت الآمرة وهي تنهض:

ـ إنتظر يا إيفان إجناتتش، دعني أخرج بماشا قبل كل شيء. ستموت خوفاً إن هي سمعت الصراخ. وأنا نفسي لا أحب هذا «التعذيب» والحق يقال. أرجو لكم التوفيق.

وكان التعذيب في ذلك الوقت من الرسوخ في تقاليدنا القضائية بحيث أن القرار الموفّق الذي اتُخذ لإلغائها ظل مدة طويلة دون تطبيق. كانوا يعتقدون أن اعتراف المجرم بجرمه أمرٌ لا بد منه، والواقع أن هذا الاعتقاد لا يستند إلى أساس، بل إنه ينافي المنطق القضائي، لأنه إن لم يكن الإنكار دليلاً على البراءة،

فالاعتراف ليس دليلاً على الجرم. ما زال يتفق لي حتى يومنا هذا أن أسمع بعض الشيوخ من القضاة يأسفون لزوال هذه العادة الوحشية. أما في ذلك الوقت فما من أحد كان يشك في فائدة التعذيب، لا من القضاة ولا من المتهمين. لذلك فإن الأمر الذي أصدره الآمر لم يدهش أحداً، ولا أقلق أحداً. ومضى إيفان إجناتتش يحضر الباشكيري الذي كان في أحد العنابر وبعد لحظات جيء بالسجين إلى الدهليز.

اجتاز الباشكيري العتبة في مشقة وعناء (كانت قدماه مقيدتين) ثم رفع قبعته المخروطية ووقف قريباً من الباب. فلما نظرت إليه سرت في جسمي رعدة قوية. لن أنسى هذا الرجل ما حييت كان يبدو أنه تجاوز السبعين، وكان مقطوع الأنف مصلوم الأذنين محلوق شعر الرأس، في ذقنه بضع شعرات بيض، وهو قصير، نحيل، محدوب، إلا أن عينيه الصغيرتين تقدحان شرراً.

قال الآمر وقد عرف فيه، من هذه العلامات، ثائراً قديماً عوقب عام 1741:

ـ أهذا أنت أيها الذئب القديم الذي سبق أن وقع في الفخ! إذن ليست هي المرة الأولى التي تثور فيها. أرني هذا الرأس الحليق! اقترب! قل، من أرسلك؟

لم يجب الباشكيري العجوز بشيء، وكان يغرس في الآمر نظرة خالية من أي تعبير.

فاستأنف الآمر يقول:

ـ لماذا لا تجيب؟ أم أنك لا تفهم الروسية؟ يولائي، إسأله بلغتكم من أرسله إلى حصننا؟

فردد يولائي السؤال باللغة التترية، إلا أن نظرة الباشكيري ظلت

جامدة لا تعبر عن شيء، ولم يجب بكلمة واحدة.

فقال الآمر:

ـ حسناً. ستجيب بعد قليل. هيًا أيها الشباب، إخلعوا عنه هذا البُرْدَ الحقير، ومزقوا ظهره جَلداً. يولائي، إنني أعتمد عليك، وأوصيك به خيراً!...

أخذ جنديان من المشوهين ينضوان عن الباشكيري ثيابه، فإذا بوجه الشقي يكتسي تعبيراً قلقاً، فكان يرمي على من حوله نظرات مذعورة، كحيوان أسره أطفال، حتى إذا أمسك أحد الجنديين يديه ووضعهما على كتفيه في مستوى عنقه وقلبه على ظهره وهزَّ يولائي سوطه، أطلق العجوز صرخة متوسلة ليست بذات أحرف، ثم رنَّح رأسه وفغر فاه، فإذا نحن نرى في مكان اللسان قطعة من اللحم مقطوعة ترتجف.

حين أتذكر أَن هذا كله قد حدث أثناء حياتي، وأننا وصلنا اليوم إلى هذا العهد السعيد، عهد الإمبراطور ألكسندر، فلا يسعني إلا أن أدهش لهذا التقدم الذي أحرزناه، ولهذه السرعة في انتشار المبادىء الإنسانية. إذا وقعت مذكراتي هذه بين يدي شاب فليذكر أن أحسن التغييرات وأبقاها هي التي ترجع إلى تحسّن الأخلاق والعادات لا إلى هزة عنيفة أو ثورة جامحة.

قال الآمر:

ـ أرى أننا لا نستطيع أن نفهم من هذا الرجل شيئاً. يولائي، أعد الباشكيري إلى العنبر. أما نحن أيها السادة فقد بقيت هنالك أشياء كثيرة يجب أن ننظر فيها!

وفيما نحن نعالج الموقف، إذا بفاسيليسا بيجوروفنا تدخل الغرفة فجأة وهي تلهث، وقد لاح في وجهها ذعر عميق.

فسألها زوجها دهشاً:

ـ ما حدث لك؟

ـ شر مستطير. احتلوا اليوم نين ـ أوزرنايا. لقد وصل الآن منها أحد عمال الأب جراسيم، وقال إنه شهد المعركة، وإن الآمر وجميع الضباط قد شُنقوا، فمن المتوقع إذن أن تصل العصابة بين لحظة وأخرى.

صُعقت لهذا النبأ، فأنا أعرف آمر الموقع في نين ـ أوزرنايا، وهو رجل في ريعان الشباب رقيق الحاشية، نزل منذ شهرين ضيفاً على إيفان كوزمتش في طريق عودته من أورنبورغ مع عروسه الشابة. وتقع نين ـ أوزرنايا على بعد 25 فرسخاً من بيلوجورسكايا، وأصبح من المتوقع إذن أن تهاجمنا عصابات بوجاتشيف في كل لحظة، وتصورت المصير الذي قد تؤول إليه ماريا إيفانوفنا، فاختنق صدري غماً وقلقاً.

قلت متجهاً إلى الآمر:

ـ إسمع يا إيفان كوزمتش، إن واجبنا هو أن ندافع عن الحصن حتى النفس الأخير، هذا أمر لا يخامرنا فيه أيّ شك. ولكن يجب أن نوقي السيدات أي أذى يمكن أن يقع عليهن. فأرسلهن إلى أورنبورغ، إذا كان الطريق حراً أو أرسلهن إلى أي حصن بعيد لا يتسع وقت اللصوص للوصول إليه.

فالتفت إيفان كوزمتش إلى زوجته يسألها:

ـ هل تسمعين؟ ما رأيك في أن أرسلكما إلى مكان بعيد، إلى أن نتغلب على هؤلاء العصاة؟

فأجابت الآمرة تقول:

ـ هذا جنون! أين الحصن الذي لا ينال منه الرصاص؟ ولماذا

تظن أن حصن بيلوجورسكايا أقل مناعة من غيره؟ نحن فيه، بحمد الله، منذ اثنين وعشرين عاماً، وقد رأينا كثيراً من رجال الباشكير والكرخيز، وسيعصمنا بإذن الله من بوجاتشيف.

فأجاب إيفان كوزمتش يقول:

ـ حسناً، إبقِ هنا ما دمت تولين حصننا كل هذه الثقة ولكن ما نصنع بماشا؟ إن الأمر ليهون إِذا استطعنا أن نظفر في الدفاع عن أنفسنا، أَو إذا وصلتنا نجدة، ولكن إِذا استطاع الثوار أن يستولوا على الحصن. . .

ـ عندئذ. . .

قالت فاسيليسا بيجوروفنا ذلك، ثم صمتت، وقد لاح في وجهها تأثر عميق.

فاستأنف الآمر يقول، وقد لاحظ أن كلامه أحدث تأثيراً في زوجته، ربما لأول مرة في حياته:

ـ كلا يا فاسيليسا بيجوروفنا. يجب أن لا تبقى ماشا هنا، فلنرسلها إِلى أورنبورغ تقيم عند إشبينتها، فإنهم يملكون هناك عدداً كافياً من فرق القتال ومن المدافع، والأسوار هنالك من حجر. وإِني لأنصحك أنت أيضاً بالمضي إِلى أورنبورغ. سترين ماذا يصنع بك هؤلاء اللصوص إِن قُدِّر لهم أن يستولوا على الحصن: لن يصدهم عن شيء أنك امرأة عجوز!

فأجابت الآمرة:

ـ أوافق على إِرسال ماشا. أما أنا فلا تطلب إِليَّ ذلك أبداً، ولا في الحلم. لن أذهب. لن أنفصل عنك في هذه السن، لأمضي باحثةً عن قبر وحيد في بلد مجهول. لقد عشنا معاً، ومعاً سنموت.

فأجاب الآمر:

ـ هذا كلام معقول. وينبغي إذن أن لا نضيِّع الوقت. هيَّا حضّري ماشا للسفر. سنرسلها غداً في الفجر. وسيصحبها خفير، رغم أننا لا نملك من الرجال ما يفيض عن حاجتنا. ولكن أين ماشا الآن؟

ـ إنها في بيت آكولينا بامفولوفْنا. لقد أغمي عليها حين بلغها نبأ الاستيلاء على نين ـ أوزرنايا، وإِني لأخشى أن تسقط مريضة. رباه! إِلى أين وصلنا!

ومضت فاسيليسا بيجوروفنا تهيىء سفر ابنتها، واستمر الحديث، إِلا أنني أصبحت لا أشارك فيه، ولا أسمع شيئاً.

ورأيت ماريا إيفانوفنا على العشاء شاحبة الوجه مورّمة الجفن من البكاء وتناولنا طعامنا صامتين، ونهضنا عن المائدة قبل الأوان المألوف، ثم استأذنّا الأسرة بالانصراف، واتجه كل منا إِلى بيته، إِلا أنني تعمدت أن أَنسى سيفي في منزل الآمر، ثم عدت لأخذه، وكنت أشعر أني سأقابل ماريا إيفانوفنا على انفراد، فتحقق ظني، ولقيتني ماريا إيفانوفنا عند الباب تمدّ إِلي السيف. قالت والدموع في عينيها:

ـ بترو أندرفتش، إِنهم يرسلونني إِلى أورنبورغ. أرجو لك عمراً مديداً وحياة سعيدة. وقد يشاء الله أن نلتقي مرة أخرى! وإِلا. . .

ثم انفجرت تنتحب، فأخذتها بين ذراعيّ.

قلت أجيب:

ـ إِلى اللقاء يا ملاكي، إِلى اللقاء يا عزيزتي، يا حبيبتي. وثقي أنك ستكونين في خيالي إِلى آخر لحظة، مهما يقع من أحداث، وأن آخر دعاء تتمتم به شفتاي سيكون لك.

كانت ما تزال تنتحب، وارتمت على صدري، فقبلتها بحرارة، وسارعتُ فتركت الغرفة.

الفصل السابع

الهجوم

لك الله يا رأسي المسكين،
قضيت في الخدمة ثلاثة وثلاثين تماماً،
لم نفز فيها بمغنم، لم تقفز فيها بفرحة،
لا ولا قول جميل،
لا ولا وصف رفيع،
ما فزت إلا بركيزتين طويلتين،
وعارضة من خشب الدلب،
وعقدة من حرير.

«أغنية شعبية»

قضيت تلك الليلة كلها من دون أن أنام ومن دون أن أخلع ملابسي. كنت أنوي أن أذهب عند الفجر إلى باب الحصن الذي ستخرج منه ماريا إيفانوفنا راحلة، فأودعها الوداع الأخير. كنت أشعر بتغيّر في نفسي. إن الانفعال الذي أعانيه في هذه اللحظة أخف وطأة على نفسي من تلك الكآبة. التي عشتها في الأوقات الأخيرة. لقد أضيفت إلى آلام الفراق، آمال عذبة (على أنها غير واضحة) وأضيف

إليها شوق إلى الأخطار، وشعور بالطموح نبيل. انقضى الليل دون أن أحسّ انقضاءه، وكنت على وشك أن أخرج إلى الشارع حين فُتح الباب، ودخل عليَّ أحد الرتباء يبلغني أن القوزاق قد تركوا الحصن أثناء الليل، وجروا معهم يولائي عنوة، وأن أناساً مجهولين يدوّمون بخيولهم حول بيلوجورسكايا، فأعطيت الرتيب بعض التعليمات بسرعة، وهرعت إلى بيت الآمر.

كان الصباح قد طلع، وكنت أطير في الشوارع حين سمعت صوتاً يناديني، فتوقفت، فإذا هو إيفان إجناتتش. قال وهو يلحق بي:

ـ إلى أين تركض؟ إن إيفان كوزمتش على الأسوار، أوفدني لاستدعائك. لقد وصل بوجاتشيف.

قلت وأنا أشعر بقلبي يرتعد:

ـ وماريا إيفانوفنا؟ هل سافرت؟

فأجاب إيفان إجناتتش بقوله:

ـ كلا. لم يتسع الوقت. إن طريق أورنبورغ مقطوع، والحصن محاصر. الحالة سيئة يا بترو أندرفتش.

وذهبنا إلى الأسوار. إنها مرتفع من الأرض طبيعي أضيفت إليه بعض التعزيزات. كان جميع سكان الحصن يسارعون إلى الأسوار. ورأيت الجنود على أهبة الاستعداد للقتال. وكان المدفع قد نصب منذ الأمس. ورأيت الآمر يتجول أمام صفوف جنوده الموزعة هنا وهناك، فاقتراب الخطر قد بثّ في هذا المحارب العجوز شجاعة خارقة. ورأيت عشرين فارساً يخببون غير بعيد من الحصن. إن معظمهم من القوزاق، وإن كان يُرى بينهم عدد من الباشكير الذين يُعرَفون بسهولة من قبعاتهم المصنوعة من جلد الفهد، ومن كناناتهم.

كان الآمر يطوف بين جنوده قائلاً:

ـ فلنقاتل اليوم يا أولادي في سبيل أمنا القيصرة (كاترين الثانية)، ولنبرهن للعالم بأسره على أننا أناس شجعان أمناء على العهد.

وكان الجنود يجيبونه بهتافات عالية مؤكدين حماستهم وقوة بأسهم. ووقف شفابرين إلى جانبي يحدق في العدو بانتباه شديد. فلما لاحظ فرسانُ العدو هذه الحركة في الحصن اقترب بعضهم من بعض، وكأنما أخذوا يتشاورون فيما بينهم ليحكموا تنظيم صفوفهم، فما كان من الآمر إلا أن أصدر أمره إلى إيفان إجناتتش أن يسدد نيران مدفعه على هذه الطائفة، واقترب هو نفسه يشعل الفتيل. ودوَّت القذيفة إلا أنها مرت فوق رؤوسهم دون أن تصيبهم بأي أذى. وتفرق الفرسان على الفور، ومضوا على صهوات جيادهم خبباً، ولم تلبث المراعي أن أقفرت.

وفي هذه اللحظة ظهرت فاسيليسا بيجوروفنا على السور تتبعها ماريا التي لم تشأ أن تبقى في الوراء.

سألت الآمرة:

ـ وبعد؟ أين المعركة؟ لست أرى عدواً!

فأجاب إيفان كوزمتش قائلاً:

ـ ليس العدو ببعيد. وستسير الأمور على أحسن حال إن شاء الله. وأنتِ يا ماشا، هل أنتِ خائفة؟

فأجابت ماريا إيفانوفنا تقول:

ـ كلا يا أبت. إن بقائي وحيدة في البيت يخيفني أكثر. ثم ألقت عليَّ نظرة رقيقة وحاولت أن تبتسم، فرأيتُني أشد على قبضة سيفي على غير إرادة مني، هذا السيف التي ناولتنيه أمس بيدها، كأنما لأدافع عنها. كان الدم يغلي في عروقي، وتخيلتُني فارس ماشا. وتحرقت شوقاً إلى أن أبرهن لها على أنني جدير بثقتها، وأخذت

أنتظر اللحظة الحاسمة بصبر فارغ.

في هذه اللحظة رأينا أفواجاً جديدة من الفرسان تظهر من وراء رابية على بعد نصف فرسخ من المكان، وسرعان ما امتلأت المراعي كلها برجال مسلحين يحملون رماحاً وأقواساً، في وسطهم رجل يرتدي قفطاناً أحمر ويمتطي صهوة جواد أصهب، ويهزّ بيده سيفاً مسلولاً. كان هذا الرجل هو بوجاتشيف.

وقف بوجاتشيف، وتحلّق حوله رجاله. ثم انفصل عن الجمع أربع رجال اتجهوا نحو الحصن، بعد أن تلقوا أمراً بذلك من غير ريب. فلما اقتربوا من الحصن، عرفنا فيهم خَوَنَتنا. كان أحدهم يحرك فوق قبّعته صحيفة من الورق. وكان آخر يحمل على طرف رمحه رأس يولائي، قذفه إلينا من فوق السور، فتدحرج رأس المسكين بين قدمي الآمر، وأخذ الخونة يصيحون:

ـ لا تطلقوا النار. تعالوا قابلوا القيصر. إن جلالته هنا!

فأجاب إيفان كوزمتش قائلاً:

ـ إنتظروا قليلاً أيها الخونة. أطلقوا النار، يا أولادي.

فأطلق جنودنا نيران أسلحتهم، فرأيت القوزاقي الذي يحمل الرسالة يترنح فوق حصانه ثم يتدحرج على الأرض، وولى رفاقه الإدبار. نظرت إلى ماريا إيفانوفنا، فإذا هي وقد صعقها منظر الرأس الدامي، رأس يولائي، وأصمَّها إطلاق النار، تبدو كأنما هي فقدت وعيها. ونادى الآمر أحد الرتباء، وأمره أن يأتيه بصحيفة الورق التي سقطت من بين يدي القوزاقي القتيل، فخرج القوزاقي إلى السهل وعاد يجر حصان القتيل، ومدَّ الرسالة إلى الآمر. فلما فرغ إيفان كوزمتش من قراءتها مزقها شر ممزق. وكان المجرمون المكرة يتهيؤون أثناء ذلك لمباشرة العمل، فما لبث رصاصهم أن أخذ يصفر

في آذاننا، وجاءت بعض النبال تخترق الأرض والسور بالقرب منا.

قال الآمر يخاطب زوجته:

- فاسيليسا بيجوروفنا. ليس الأمر الآن أمر نساء، إذهبي بماشا. ألا ترين أنها أقرب إلى الموت منها إلى الحياة!

تأثرت فاسيليسا بيجوروفنا من الرصاص، فألقت نظرة على المراعي التي تضطرب بحركة كبيرة، ثم قالت وهي تلتفت نحو زوجها:

- إيفان كوزمتش، لا يعرف أحد من يموت ومن يحيا. بارك ماشا، اقتربي من أبيك!

فاقتربت ماشا من إيفان كوزمتش، ممتقعة اللون مرتجفة، ثم جثت على ركبتيها وانحنت حتى لامست الأرض. فرسم الآمر عليها إشارة الصليب ثلاث مرات، ثم أنهضها فقبلها، وقال لها بصوت متهدج:

- ماشا، أتمنى لك السعادة. لن يتخلى الله عنك. صلي له. وإذا قيّض الله لك رجلاً شريفاً يتزوجك، فإني أسأله تعالى أن يهب لكما السعادة. إسعدي كما سعدتُ مع فاسيليسا بيجوروفنا. وداعاً يا ماشا. فاسيليسا بيجوروفنا. إذهبي بها حالاً.

فارتمت ماشا على عنقه، وأخذت تشهق.

قالت الآمرة وهي تبكي:

- لنتعانق نحن أيضاً. وداعاً يا عزيزي إيفان كوزمتش. سامحني إذا كنت قد أسأت إليك في شيء.

فقال وهو يقبل نصفه العجوز:

- وداعاً وداعاً يا عزيزتي. والآن، يكفي هذا. إرجعا إلى البيت، والبسي ماشا ثوب السارافان إذا اتسع الوقت لذلك.

وانسحبت الأم مع إبنتها، ونظرت إليهما تمضيان، فرأيت ماشا تلتفت إليّ وتحني رأسها في تحية. وفي هذه اللحظة لفت إيفان كوزمتش نظرنا إلى حركات يقوم بها العدو. إن العصاة يتجمعون حول زعيمهم ثم ينزلون فجأة عن جيادهم.

قال الآمر:

- الآن سيهجمون. إستعدوا.

في هذه اللحظة سمعنا صرخات وزئيراً مدوياً. وهجم الثوار يتقدمون نحو الحصن راكضين. كان مدفعنا مشحوناً. تركهم الآمر يقتربون، حتى إذا صاروا على مسافة قصيرة منا، أطلق نار المدفع على حين غرة، فسقطت القذيفة في وسطهم. فتفرق العصاة يتراجعون. ووقف زعيمهم وحده في الأمام. كان يهزّ سيفه، ويطمئن رجاله، ويبث فيهم الحماسة... فإذا الصراخ والزئير اللذان انقطعا لحظة من الوقت يدوّيان مرة أخرى في قوة أكبر.

قال الآمر:

- والآن يا أولادي، إفتحوا الباب، ودقّوا الطبل. إتبعوني أيها الشجعان، سنخرج إليهم.

وما هي إلا طرفة عين حتى كنا أنا والآمر وإيفان إجناتتش في الجهة الثانية من السور. إلا أن الجنود الخائفين لم يتحركوا.

فصرخ الآمر يقول:

- ماذا تنتظرون يا أبنائي؟ إن الإنسان لا يموت إلا مرة واحدة، هذا واجبنا!

وفي هذه اللحظة وصل إلينا العصاة، واقتحموا باب الحصن. سكت الطبل، وألقى رجالنا سلاحهم. وكان العصاة قد قلبوني على الأرض، فلما نهضت دخلت الحصن وراء المهاجمين، فرأيت

الآمر، وقد جُرح في رأسه، يقف في وسط جمع من اللصوص يطلبون إليه مفاتيحه. أردت أن أهب إلى نجدته، إلا أن عدداً من القوزاق الأقوياء قبضوا عليَّ وقيدوني بأحزمتهم وهم يقولون «انتظروا قليلاً، يا خونة قيصركم». وطافوا بنا في الشوارع فكان السكان يخرجون من بيوتهم يحملون خبزاً وملحاً (علامة الترحيب)، وأخذت الأجراس تدق، ونودي في الحشد فجأة أن القيصر في الساحة الكبرى ينتظر السجناء، وأن الناس سيحلفون له يمين الطاعة والولاء. فهرع الجمهور نحو الساحة الكبرى، وإلى هذه الساحة قادونا نحن أيضاً.

كان بوجاتشيف جالساً على مقعد فوق الدرج من باب بيت الآمر. كان يرتدي قفطاناً قوزاقياً أحمر تزينه أشرطة موشاة بالذهب، وكانت قبعته عالية ذات شرابات ذهبية تغطي رأسه حتى الحاجبين فوق عينيه اللامعتين. خيِّل إليَّ أنني أعرف هذا الوجه. وكان عدد من الزعماء القوزاق يحفّون به. وكان الأب جراسيم واقفاً إلى جانب الدرج ممتقع اللون مرتعداً وقد أمسك بيده صليباً، وبدا كأنه يضرع إلى الله صامتاً أن يرحم الضحايا التي ستهلك.

وسرعان ما نُصبت مشنقة في وسط الساحة. وحين اقتربنا من الدرج فرَّق الباشكير الجموع المحتشدة، وقدمونا إلى بوجاتشيف. انقطع صوت الأجراس، وخيَّم صمت عميق.

سأل الغاصب:

ـ أيهم آمر الموقع؟

فخرج الوكيل الخائن من الجمع وأشار إلى إيفان كوزمتش، فألقى بوجاتشيف على الرجل العجوز نظرة حانقة، وقال له:

ـ كيف جرؤت على مقاومتي وأنا مولاك القيصر؟

فإذا بالآمر، وكان خائر القوى من وطأة جرحه، يستجمع ما بقي له من عزيمة فيجيب بصوت قويّ:

ـ لست مولاي القيصر، ما أنت إلا لصٌّ غاصب هل تسمع؟

فقطب بوجاتشيف حاجبيه، ولوح بمنديل أبيض. فسارع عدد من القوزاق، فقبضوا على الضابط العجوز وقادوه إلى المشنقة. ورأيت الباشكيري المشوه الذي استجوبناه في الليلة البارحة راكباً على عارضة المشنقة، وبيده حبل. وما هي إلا برهة حتى رأيت المسكين إيفان كوزمتش يتأرجح في الهواء. ثم جاء دور إيفان إجناتتش، قال له بوجاتشيف:

ـ تعال إحلف يمين الولاء للقيصر بطرس فيدوروفتش!

فأجاب إيفان إجناتتش يردد كلام آمره:

ـ لست قيصرنا. ما أنت إلا لص مغتصب.

فلوح بوجاتشيف مرة أخرى بمنديله: ورأيت الملازم الشجاع يشنق إلى جانب رئيسه العجوز.

ثم جاء دوري. ألقيت على بوجاتشيف نظرة قوية جريئة، وأنا أتهيأ لترديد الجواب الذي قاله رفاقي بشهامة وهمّة، فإذا أنا، على دهشة مني شديدة، أرى شفابرين واقفاً بين القادة العصاة، وقد حلق شعر رأسه على شكل دائرة، وارتدى القفطان القوزاقي، ثم رأيته يقرب من بوجاتشيف، ويهمس في أذنه بشيء، فيقول بوجاتشيف دون أن يلقي عليَّ نظرة واحدة:

ـ اشنقوه!

وضعوا العقدة في عنقي، وأخذت أردد بعض الصلوات بصوت منخفض، استغفر الله عن جميع خطاياي، وأضرع إليه أن يحفظ أولئك الذين أحبهم... وقادوني إلى المشنقة. وسمعت جلاّدِيَّ

يرددون على مسامعي قولهم:

ـ كن شجاعاً، كن شجاعاً.

لعلهم كانوا يريدون أن يشجعوني حقاً.

وفجأة سمعت صرخة تقول:

ـ إنتظروا، إنتظروا أيها المناحيس!

فتوقف الجلادون، ورأيت سافلتش جاثياً على قدمي بوجاتشيف وسمعت «المربي» المسكين يخاطبه بقوله:

ـ ماذا تجني يا مولاي من قتل سيد صغير مسكين! دعه وشأنه، ندفع لك فدية. وإذا كان لا بد لك حتماً من أن تضرب مثلاً وأن تبث الرعب، فمرْهم بأن يشنقوني أنا الشيخ الهرم.

فأشار بوجاتشيف بيده، فإذا بهم يحلون العقدة عن عنقي، ويطلقون سراحي قائلين:

ـ إن أبانا قد عفا عنك.

لا أستطيع أن أقول إنني فرحت في تلك اللحظة فرحاً خالصاً لا يداخله ألم. لقد تملكتني عواطف ملتبسة قادوني نحو الغاصب وأركعوني أمامه، فمدّ إليَّ بوجاتشيف يده المغضنة، فهتف الناس من حولي يقولون:

ـ قبّل يده.

إلا أنني أفضل أن ينزلوا بي أقصى أنواع التعذيب على أن أرضى بهذا الذل.

وسمعت سافلتش، وكان ورائي يدفعني في ظهري، يهمس في أذني قائلاً:

ـ بترو أندرفتش، عزيزي، لا تكن عنيداً. إن هذا لا يكلفك شيئاً، أبصق على الأرض وقبل يد هذا المجـ. . . قبّل يده.

لم أحرّك ساكناً، فخفض بوجاتشيف يده ثم قال:

ـ لا شك أن السيد النبيل قد فقد صوابه من شدة الفرح. أنهضوه!

فأنهضوني وأطلقوا سراحي وظللت واقفاً أتأمل هذه المهزلة الفظيعة بتتالي فصولها أمامي.

وقيد السكان إلى حلف اليمين، فكانوا يقتربون واحداً بعد آخر، فيقبّلون الصليب، ثم يحيّون الغاصب. ورأيت جنودنا يمرون أمام خياط الطابور، فيقص لهم ضفائرهم بمقصه المثلم، ثم يتجهون نحو بوجاتشيف فيقبّلون يده، فَيَمُنّ عليهم بعفوه ويقبلهم في عداد عصابته. ودام هذا كله ثلاث ساعات طوال. وأخيراً ترك بوجاتشيف مكانه، ونزل إلى الشارع مع أركان حربه، وأتوه بحصان أصهب مجهز بأجمل عدة، ورفعه اثنان من القوزاق من ذراعيه ليمتطي صهوة جواده، وقال للأب جراسيم إنه ذاهب إلى العشاء في بيته.

وفي هذه اللحظة سمع صوت امرأة فرأيت عدداً من هؤلاء اللصوص يجرون فاسيليسا بيجوروفنا على درج الباب، وقد تشعّث شعرها وعُريت من ملابسها، وكان أحدهم قد اتسع وقته لارتداء معطفها، وكان الآخرون بسبيل إخراج وسائد وصناديق وأوان وملابس وأنواع كثيرة من الأثاث والثياب.

كانت المرأة المسكينة تصرخ:

ـ إسمحوا لي أن أصلّي وأن أتوب إلى الله. خذوني إلى جانب إيفان كوزمتش.

فلما رأت المشنقة فجأة عرفت زوجها فصرخت وقد طاش عقلها:

ـ أيها اللصوص، ماذا صنعتم به! آه يا عزيزي إيفان كوزمتش.

أيها المحارب الشجاع، لم تقدر عليك الحراب البروسية ولا قدر عليك الرصاص التركي، لم تمت في ساحة القتال، وإنما قتلك

مجرم هارب من السجن!

قال بوجاتشيف:

ـ أسكتوا الساحرة العجوز!

فإذا بقوزاقي شاب يهوي بسيفه على رأسها، فتسقط على الدرج ميتة. ومضى بوجاتشيف في سبيله وانطلقت الجموع في إثره.

الفصل الثّامن

ضيف غير منتظر

إن ضيفاً غير منتظر لأسوأ من تتري.

«مثل روسي»

خلت الساحة العامة من الناس. وظللت من هول ما رأيت واقفاً لا أتحرك، ولا أستطيع أن أجمع شتات فكري ولا أن أعزم على شيء من أمري.

وكان جهلي بالمصير الذي آلت إليه ماريا إيفانوفنا يعذبني أكثر من أي شيء آخر. أين هي الآن؟ ماذا وقع لها؟ هل اتسع وقتها للاختباء؟ هل التجأت إلى مكان مأمون؟

ثم دخلت بيت الآمر، وأنا فيما أنا فيه من تساؤل وقلق وغمّ. كان كل شيء في البيت خالياً. فالكراسي والمناضد والصناديق والأواني، كل شيء قد حُطِّم وأفرغ من محتوياته. وصعدت سلماً صغيراً يؤدي إلى الطابق الأول، صعدته عدواً وأنا أقفز درجاته أربعاً أربعاً، حتى دخلت إلى غرفة ماريا إيفانوفنا، لأول مرة في حياتي. فرأيت سريرها قد نبشه اللصوص، ورأيت خزانتها محطمة منهوبة، ورأيت القنديل الصغير ما زال مشتعلاً أمام الخزانة الزجاجية التي

تضم صور القديسين وقد بقرها اللصوص، ورأيت المرآة المعلقة بين نافذتين ما زالت سليمة لم يمسّوها بأذى... ولكن أين هي سيدة هذه الحجرة المتواضعة؟ وافتني فكرة رهيبة: تصورت ماشا بين هؤلاء المجرمين. انقبض صدري، وذرفت دموعاً مرة، وأنا أنادي حبيبتي بصوت مرتفع... فإذا أنا أسمع حركة خفيفة، وإذا أنا أرى بالاشا تخرج من وراء الخزانة شاحبة الوجه مرتجفة.

قالت وهي تضم يديها إحداهما إلى الأخرى:

- آه يا بترو أندرفتش، ما هذا اليوم! ما هذه الأهوال!

فسألتها فارغ الصبر:

- وماريا إيفانوفنا؟ ماذا حل بها؟

فأجابت:

- الآنسة ما زالت حية. إنها مختبئة عند آكولينا بامفيلوفنا.

فهتفت مذعوراً:

- في منزل الأب جراسيم! ولكن إلى هناك إنما ذهب بوجاتشيف! وهرعت إلى الشارع أركض نحو منزل الأب جراسيم ركضاً سريعاً. كان بصري زائغاً، وكانت روحي ذاهلة.

سمعت صراخاً وقهقهات وغناءً... إن بوجاتشيف يطعم ويشرب مع رفاقه. وكانت بالاشا قد تبعتني، فأرسلتها خفيةً إلى آكولينا بامفيلوفنا أرجوها أن تأتي إلى لقائي. فما هي إلا لحظة حتى خرجت زوجة الأب جراسيم إلى الدهليز الذي كنت أنتظر فيه، وبيدها زجاجة فارغة.

سألتها في انفعال شديد:

- أرجوك! أين ماريا إيفانوفنا؟

فأجابت:

- إنها هنا، هذه الحمامة العزيزة، على سريري، وراء الحاجز. نعم، يا بترو أندرفتش، لقد كانت من الموت قاب قوسين أو أدنى، إلا أن الله سلَّم، وتم كل شيء على ما يرام. كان اللص قد جلس إلى المائدة، حين أفاقت من إغمائها فتأوّهتْ!... كدت أسقط على الأرض من شدة الرعب. وسمعها اللص، فإذا هو يسأل: «من ذا الذي يتباكى عندك يا عجوزتي؟» فحييت هذا الشقي تحية عميقة، وأنا أقول «إنها إبنة أختي، يا سيدي. وهي مريضة منذ أسبوع». فقال «وهل هي صبية ابنة أختك هذه؟» فقلت: «نعم إنها صبية يا سيدي». قال: «أرنيها إذن أيتها العجوز». توقف قلبي عن الخفقان من شدة الذعر، ولكن لم يكن ثمة مهرب، فقلت: «أمرك مطاع يا سيدي، إلا أن البنت لا تستطيع أن تنهض لتأتي إلى تحية سعادتك» فقال: «لا بأس، أذهب أنا إليها».

تصور أنه ذهب يراها، هذا اللص... انتقل إلى الجانب الآخر من الحاجز، وسحب الستائر... ما رأيك؟ نظر إليها بعينيه الشبيهتين بعيني العقاب... ولكن كان هذا كل شيء... لقد وقانا الله هذه المحنة! صدِّق أننا تهيأنا أنا والأب جراسيم لأن يقتلنا. من حسن الحظ أن الحمامة الغالية لم تتعرفه أبداً! يا إلهي رب السموات! يا له من يوْم! يعجز اللسان عن الكلام! مسكين إيفان كوزمتش؟ من ذا الذي كان يفكر في هذا؟ وفاسيليسا بيجوروفنا؟ ثم إيفان إجناتتش، ما كان مأخذهم عليه؟ وأنت، كيف لم يمسّوك بأذى؟ وشفابرين ألكسي إيفانتش؟ رجل طيب مستقيم! هه! ولكن هل تصدق؟ إنني حين كنت أتكلم عن ابنة أختي المريضة رمقني بنظرة كأنما هو يريد أن يطعنني بضربة سكين! إلا أنه لم يقل شيئاً. يستحق الشكر على كل حال!...

وفي هذه اللحظة سُمعت صيحات الضيوف المخمورة، وسُمع الأب جراسيم يُنادي زوجته. إن الضيوف يطلبون خمراً. اضطربت الزوجة، وقالت:

ـ بترو أندرفتش، عد إلى بيتك، لا يسع وقتي للبقاء معك. إن السفلة يسكرون ويعربدون. أرجو أن لا يوقعك حظك التعس بين أيدي هؤلاء السكارى! وداعاً يا بترو أندرفتش! ليكن ما يكون! أرجو أن لا يتخلى عنا الله!

وغابت. شعرت بشيء من الطمأنينة فاتجهت نحو مسكني، وفيما أنا أجتاز الساحة الكبرى رأيت عدداً من الباشكير تجمعوا حول المشنقة وأخذوا ينزعون عن أرجل المشنوقين أحذيتهم، ولم أستطع أن أكظم غيظي إلا في عناء، وما كان تدخلي يسفر عن أي فائدة على كل حال. ورأيت لصوصاً يطوفون في الحصن ركضاً ينهبون بيوت الضباط. وكانت تنبعث أصوات العصاة من كل مكان وهم يسكرون. عدت إلى بيتي، فرأيت سافلتش ينتظرني على عتبة الباب. فلما رآني هتف يقول:

ـ الحمد لله! كدت أظن أن المجرمين قد قبضوا عليك مرة أخرى. هل تصدق يا عزيزي بترو أندرفتش أن المجرمين قد نهبوا كل ما في البيت! لم يبق لنا شيء، لا ملابس ولا أواني ولا شيء البتة. ولكن لا ضير! لنحمد الله على أنهم أبقوا على حياتك. هل تعرفت زعيمهم يا سيدي؟

ـ كلا. من هو؟

ـ كيف لم تتعرفه يا عزيزي؟ أننسى ذلك السكير الذي اضطرك أن تهدي إليه معطفك في النزل؟ كان معطفاً من جلد الأرنب جديداً كل الجدة، فتّقه هذا الحيوان تفتيقاً حين ارتداه؟

شُدهت. حقاً إن الشبه بين بوجاتشيف وبين ذلك الدليل قوي جداً، وأيقنت أنه هو ذلك الدليل عينه، ففهمت لماذا عفا عني. ولم يسعني إلا أن أعجَبَ لتعاون الظروف على هذا النحو! معطف صبي أهديه إلى متشرد فإذا هو يمنع عني ميتة شنيعة! سكير من رواد الحانات يحاصر حصوناً ويهز الدولة بأسرها!

سألني سافلتش، وفياً لعاداته:

ـ هل تريد أن تأكل شيئاً؟ ليس عندنا ما نطعمه هنا. سأمضي أبحث عن شيء أهيئه لك.

بقيت وحدي وأخذت أفكر. ماذا أفعل؟ إن بقائي في الحصن تحت سلطان هذا اللص أو ارتباطي بعصابته، أمران لا يتفقان مع صفة الضابط التي أحملها. إن الواجب يقتضيني أن أمضي إلى حيث يمكن أن أقدّم لوطني في الظروف الحاضرة خدمات تفيده. إلا أن قلبي ينصحني ملحّاً بأن أبقي إلى جانب ماريا إيفانوفنا أدافع عنها وأحميها. ورغم تنبّؤي بأن تغيراً سريعاً سيطرأ على الموقف من دون ريب، لم أستطع أن أمنع نفسي من الارتعاد حين فكرت في الأخطار التي ما زالت ماريا معرَّضة لها.

وقطع تأملاتي وصولُ رسول قوزاقي هَرَعَ يبلغني أن «القيصر العظيم» يستدعيني إليه!

فسألته وأنا أستعد لأن أتبعه:

ـ أين هو؟

فأجاب القوزاقي:

ـ في بيت الآمر. إن مولانا بعد أن تغدى ذهب إلى الحمّام وهو الآن يستريح. واضح يا صاحب النبالة، إنه شخص عظيم.

لقد تفضل أثناء الطعام فأكل خنزيرين مقليين، وكان حمامه من

شدة الحرارة بحيث أن تاراس كوروتسكين لم يستطع أن يطيقه فترك الفرشاة لفوما بكبابيفا ولم يسترد حالته الطبيعية برش الماء البارد على جسده إلا بعد مدة طويلة، ويقال إن دلائل عظمة مولانا قد ظهرت منقوشة على صدره، فعلى أحد طرفي الصدر نسر ذو رأس كبيرة كقطعة خمسة كوبيكات، وعلى الطرف الثاني صورته.

لم أعتقد أن من الضروري أن أخالف القوزاقي في رأيه. وتبعته إلى بيت الآمر وأنا أتخيل ما عسى أن يكون لقائي لبوجاتشيف وما عسى أن يؤول إليه هذا اللقاء ولا بد أن القارىء يفهم بسهولة أنني لم أكن هادئاً كل الهدوء.

حين وصلت إلى بيت الآمر كان الظلام قد بدأ يهبط، وكانت المشنقة المشؤومة وضحاياها تُرى في الظلام أَشباحاً سوداً. وكان جسم الآمرة المسكينة ما يزال ملقى تحت درج الباب حيث يقف ديدبانان من القوزاق. ودخل دليلي ليؤذن بوصولي، وسرعان ما عاد فقادني إلى تلك الغرفة عينها التي ودّعت فيها بالأمس ماريا إيفانوفنا وداعاً رقيقاً.

رأيت أمام عيني منظراً فذاً: رأيت بوجاتشيف وعشرة من زعماء القوزاق تحلقوا حول مائدة مفروشة بغطاء ومملوءة بالقناني والأقداح. كانوا جميعاً يرتدون قبعات وقمصاناً ملونة. وكانت خدودهم المنتفخة متضرجة بتأثير الخمر، وكانت أعينهم تلمع كالشرارات. لم أر بينهم شفابرين ولا رأيت الوكيل، هذين الخائنين الحديثي العهد بالخيانة. فلما رآني بوجاتشيف داخلاً هتف يقول:

ـ آ. صاحب النبالة. أهلاً وسهلاً. تفضل واجلس.

أفسح لي الضيوف مكاناً فجلست صامتاً إلى ركن المائدة. وكان جاري شاباً قوزاقياً جميلاً ممشوق القامة، لم يلبث أن سكب لي

قدحاً من الخمر، إلا أنني لم ألمس القدح البتة. وجعلت أفحص هذا الاجتماع في كثير من حب الاستطلاع. كان بوجاتشيف جالساً في مكان الشرف متكئاً على المائدة وقد أسند لحيته السوداء على قبضة يده. إن قسمات وجهه منسجمة لا تخلو من جمال ولا توحي بشيء من القسوة. كان يلتفت كثيراً إلى رجل في الخمسين من عمره يناديه تارة بالكونت وتارة باسم تيموفييتش ويكفي تارة أخرى بأن يناديه: عماه. وكان الجميع يتعاملون كرفاق ولا يبدو عليهم أنهم يشعرون نحو رئيسهم باحترام خاص. وكانوا يتحدثون عن هجوم الصباح وعمّا سيقومون به في المستقبل من أعمال. وكانوا لا يتحرجون أبداً من معارضة آراء بوجاتشيف. وفي هذا المجلس الحربي إنما قرروا أن يتجهوا إلى أورنبورغ، وهي حركة تنطوي على كثير من الجسارة أوشكت أن تكلل بنجاح مفجع. وقرروا أن يسيروا في اليوم التالي. قال بوجاتشيف:

ـ والآن أيها الأخوة، فلنغن نشيدي المفضل قبل أن ننام. إبدأ يا تشوماكوف.

فلم يلبث جاري أن أخذ يغني بصوت كصوت الناي أغنية حزينة مما يغنيه ربابنة المراكب. ثم أخذ الجميع يغنون معاً:

على رِسْلك أيتها الغابة الفسيحة.
لا تحْدثي صخباً،
فتمنعي الفارس المغوار من الاسترسال في تفكيره.
ذلك أنني سأمثل في الغداة أمام قاض رهيب،
أمام القيصر نفسه.
سيهتف بي القيصر:
«قل لي أيها الشجاع، يا ابن الفلاح،

من كان رفاقك في النهب؟
وهل كانوا كُثراً؟
يا قيصراه، يا أمل جميع المسيحيين!
سأقول لك الحقيقة كلها!
«كان لي أربع رفاق أُمناء:
الأول هو الليل الحالك
والثاني خنجر من فولاذ
والثالث جوادي المقدام
والرابع قوسي المشدود.
وكانت رسلي نبالاً أحمّرها بالنار».

وسيجيبني القيصر، أمل جميع المسيحيين، بقوله:

مرحى أيها الشجاع يا ابن الفلاح.
لقد عرفت كيف تنهب، وعرفت كيف تجيب.
سوف أنعم عليك
سوف أنعم عليك بقصر منيف يقوم في قلب السهول:
سوف أنعم عليك بمشنقة.

لا أستطيع أن أصف قوة تأثري بهذه الأغنية الشعبية المخصصة للمشنقة والتي يغنيها أناس أعدوا للشنق. إن الوجوه الرهيبة والأصوات المتناغمة ورنة الحزن التي يبعثونها في هذا الكلام المعبّر في حدّ ذاته، إن هذا كله قد بثّ في جسمي قشعريرة من رعب حزين. وابتلع الضيوف كأساً أخيرة، ونهضوا عن المائدة واستأذنوا بوجاتشيف. أردت أن أتبعهم إلا أن بوجاتشيف استوقفني قائلاً:

ـ إبق. أريد أن أكلمك!

وبقينا منفردين. دام الصمت بضع لحظات. وكان بوجاتشيف أثناء

ذلك يحدّق فيَّ، مغمضاً في بعض الأحيان عينه اليسرى نصف إغماضة وكان ذلك يكسب وجهه هيئة خبيثة ساخرة. ثم إذا به ينطلق في ضحكة تبلغ من شدة تعبيرها عن الفرح الصريح أنني حين رأيته على هذه الحال أخذت أضحك أنا أيضاً دون أن أعرف لماذا.

قال:

ـ لا شك أن صاحب النبالة يعترف أنه خاف حين وضع رجالي الحبل في عنقه. كاد لسانك أن يتدلى نصف قدم!... كدت تتأرجح في الفضاء لولا خادمك!... نعم سرعان ما تعرفت عجوزك الهرم. هل كان يدور بخلدك يا صاحب النبالة أن الرجل الذي قادك إلى الفندق هو القيصر العظيم نفسه؟ (هنا اكتسى وجهه مسحة رصينة) لقد أخطأت في حقي كثيراً ولكنني عفوت عنك لكرمك ولأنك خدمتني في اللحظة التي كنت مضطراً فيها إلى الاختباء عن عيون أعدائي. ولكن إنتظر قليلاً، سترى كيف أكافئك يوم أسترد عرشي! هل تعدني بأن تخدمني في حماسة وإخلاص؟

وبدا لي سؤال هذا السافل وجرأته على الحق مضحكين حتى لم أستطع أن أمنع نفسي عن التبسم. فسألني وهو يقطّب حاجبيه.

ـ مم تضحك؟ أتراك لا تعتقد بأنني القيصر؟ أجب بلا تردد ولا مواربة.

فشعرت باضطراب كان يستحيل علي أن أعترف بهذا المتشرد ملكاً. وإلا برهنت على جبن لا يغتفر. وكان من الصعب أيضاً أن أواجهه بأنه لص وإلا عرّضت حياتي للخطر. إن الكلام الذي كنت مستعداً لقوله في لحظات الاستياء الأولى إلى جانب المشنقة أمام الجمهور المحتشد يبدو لي الآن صَلَفاً لا طائل منه. ترددت في الجواب وكان بوجاتشيف ينتظر جواباً وهو متجهّم الوجه. وأخيراً

تغلب الشعور بالواجب في نفسي على الضعف الإنساني (إنني لأتذكر الآن تلك الدقيقة في سرور عظيم) فالتفتّ نحو بوجاتشيف أقول:

ـ إسمع. سأقول لك الحقيقة. فكر أنت نفسك في الأمر. كيف أستطيع أن أعترف بأنك قيصر؟ إنك رجل ذكي وفي وسعك إن أنا زعمت لك ذلك أن تفهم أنني أخادعك.

فقال:

ـ من أكون إذن في نظرك؟

ـ الله أعلم. على أنك، كائناً من كنت، تلعب لعبة خطرة.

فرماني بنظرة سريعة ثم قال:

ـ إذن أنت لا تعتقد بأنني القيصر بطرس فيودوروفيتش؟ حسناً. ولكنك تسلّم معي بأن الحظ حليف الشجاع. ألم يحكم جريشكا أوتريبيف في عصره؟[1] إعتبرني من تشاء ولكن لا تتركني. هذا هو المهم. أخدمني في حماسة وإخلاص أجعلك فلدمارشالاً وأميراً. ما رأيك؟

فأجبت في عزم وقوة:

ـ كلا. إنني إنسان شريف. وقد حلفت يمين الولاء للإمبراطورة. لا أستطيع أن أخدمك. وإذا كنت تريد لي الخير حقاً فدعني أمضي إلى أورنبورغ.

فأطرق بوجاتشيف يفكر ثم قال:

ـ هل تعدني على الأقل، إذا أنا أطلقت سراحك، بأن لا تحارب في صفوف أعدائي؟

فأجبت:

ـ كيف تريد أن أعدك بذلك. إنك لتعرف أنت نفسك أن هذا

(1) هو الإسم المظنون للمحتال المدعي ديمتري الأول المزيّف. 1605 ـ 1606.

الأمر ليس منوطاً بإرادتي. أنت الآن قائد وإنك لتطلب إلى رجالك الطاعة. فكيف أستطيع أن أرفض الحرب حين تقتضي الضرورة أن أشترك فيها. إن حياتي بين يديك فإن تركتني شكرتك وإن قتلتني كان حسابك على الله. أما أنا فلم أقل لك غير الحقيقة.

وبدا على بوجاتشيف أن صراحتي تفاجئه. فقال وهو يربت على كتفي:

ـ ليكن ما تريد. أنا إن عاقبت كان عقابي صارماً وإن عفوت كان عفوي كاملاً. إذهب إلى حيث تريد وأفعل ما يبدو لك. تعال ودّعني في الغد. والآن إمضِ إلى النوم فإنني نعس أيضاً.

تركت بوجاتشيف وخرجت إلى الشارع. كان الليل هادئاً وبارداً، والقمر والنجوم تلمع في السماء وتُغرق الساحة الكبرى والمشنقة بالنور. كان كل شيء في الحصن يبدو ساكناً. وكانت نوافذ الحانة وحدها مضاءة تخرج منها أصوات بعض المتأخّرين من اللاهين. نظرت إلى بيت القسّ فرأيت الأبواب والنوافذ مغلقة. إن كل شيء يبدو في الداخل ساكناً.

وصلت إلى مسكني فوجدت سافلتش في حالة من القلق العميق، فلما علم أن حريتي قد ردت إليَّ فرح فرحاً عظيماً. قال وهو يصلّب:

ـ الحمد لله! . . . سنترك الحصن منذ الفجر ونمضي إلى حيث يشاء الله! . . . لقد حضّرت لك يا عزيزي شيئاً تتعشاه. تعال كل، ثم نَمْ إلى الصباح نوماً هادئاً كنوم الفأر في أحضان القش.

فعملت بنصيحته، وبعد أن التهمت الطعام في شهوة كبيرة غفوت على أرض الغرفة محطّم الجسم والروح جميعاً.

الفصل التاسع

الفراق

أواه ما أحلاه
يوم عرفتكِ فيه
يا حبيبتي الجميلة
وآه ما أشقاني
إذ أفارقكِ الآن.
لكأنني أفارق روحي.

«أغنية»

أَيقظني قرع الطبل بكرةً في الغداة. فذهبت إِلى مكان الاجتماع، فرأَيت عصابات بوجاتشيف تصطف عند المشنقة التي ما زال ضحايا الأمس معلقين عليها، ورأيت القوزاق قد امتطوا خيولهم، والجنود قد حملوا أسلحتهم، ورأيت الرايات تخفق، ورأيت عدداً من المدافع، بينها مدفعنا، قد شدَّ إِلى العربات، ورأيت السكان قد تجمهروا جميعاً ينتظرون كذلك خروج الغاصب، ورأيت قوزاقياً واقفاً أمام درج الباب، ممسكاً بمقود حصان أصهب رائع من عرق الكرخيز. وتلفتُّ أبحث عن جثمان الآمرة، فوجدت أنهم قد وضعوه جانباً، وغطوه

بغطاء. وأخيراً خرج بوجاتشيف من الدهليز. فرفع الجميع قبعاتهم، وتوقف بوجاتشيف على درج الباب يحيي الناس، وناوله أحد «القدماء» كيساً مملوءاً بالدنانير، فأخذ بوجاتشيف يرميها إِلى الجمهور بكلتا يديه، وأخذ الناس يسارعون إِلى تلقفها متزاحمين. مصوّتين وأصيب بعض الأشخاص من جراء ذلك بأذى غير يسير. وأتى رفاق بوجاتشيف يصطفون حول زعيمهم، وكان من بينهم شفابرين. التقت نظرتانا، واستطاع أن يقرأ في عيني الاحتقار والازدراء، فأشاح وجهه حانقاً، متظاهراً بالهزء والسخرية. ولمحني بوجاتشيف بين الجمهور، فحياني بحركة من رأسه، ثم ناداني إليه وقال:

ـ إِسمع. إذهب حالاً إِلى أورنبورغ، وقل للحاكم وسائر القادة أن ينتظروني هنالك في غضون أسبوع أنصحهم أن يستقبلوني كما يستقبل الأبناء أباهم في حب وخضوع. وبغير ذلك لا يستطيعون أن يوفّروا على أنفسهم عذاباً شديداً. على الطائر الميمون يا صاحب النبالة!

ثم التفت إِلى الجمهور، وقال وهو يشير إِلى شفابرين:

ـ إسمعوا يا أبنائي، هذا هو آمركم الجديد، فأطيعوه في كل أمر، وهو المسؤول أمامي عنكم وعن الحصن.

سمعت هذا الكلام في هول فظيع. أيصبح شفابرين آمر الموقع، وتظل ماريا إيفانوفنا تحت سلطانه؟... رباه! ما سيكون إِذن من أمرها؟

نزل بوجاتشيف عن درج الباب، وأتوه بالحصان، فامتطاه في خفة ورشاقة، دون أن ينتظر معونة القوزاقيّيْن اللذين أرادا أن يسنداه.

وفي هذه اللحظة رأيت سافلتش يترك الصفوف ويقترب من بوجاتشيف ممسكاً بورقة. لم أستطع أن أحزر ما يريد.

سأله بوجاتشيف في وقار:

ـ ما هذا؟

فأجابه سافلتش:

ـ تفضل بقراءة الورقة فتعلم المسألة.

فتناول بوجاتشيف الورقة، وظل مدة طويلة يمحّصها في كثير من الجدّ. ثم سأله:

ـ لماذا خطك رديء إلى هذا الحد؟ لم تستطع عينانا أن تفكا هذه الكتابة السيئة. أين رئيس أمناء السر؟

فما إن قال بوجاتشيف ذلك حتى تقدم شاب نشيط يرتدي بزة عريف. فقال له الغاصب وهو يناوله الورقة:

ـ إقرأ بصوت مرتفع.

وكنت قلقاً أتحرق شوقاً إلى معرفة ما عسى أن يكون سافلتش قد كتب لبوجاتشيف. وأخذ أمين السّر يتهجّى جهاراً:

«ثوبان للمنزل: أحدهما من قطن، والثاني من حرير مقلم. المجموع: 6 روبلات».

فقال بوجاتشيف وهو يقطب حاجبيه:

ـ ما معنى هذا كله؟

فأجاب سافلتش بهدوء:

ـ قل له أن يتم القراءة.

واستأنف أمين السرّ يقرأ:

«بزة عسكرية من صوف أخضر ناعم، قيمتها 7 روبلات. سروال من صوف أبيض قيمته 7 روبلات. اثنا عشر قميصاً من كتان هولاندي بأكمامها، قيمتها 10 روبلات. حقيبة تحتوي على عدة تحضير الشاي قيمتها روبلان ونصف».

فقاطع بوجاتشيف قائلاً:

ـ ما هذا الهذر السخيف! ما شأني وشأن الحقائب والسراويل ذات الأكمام! . . .

فتنحنح سافلتش يريد أن يشرح المسألة. قال:

ـ هذه، إن أمرت، قائمة بأشياء سيدي التي نهبها اللصوص.

فصرخ بوجاتشيف بلهجة متوعدة:

ـ أي لصوص تعني؟

ـ معذرة. . . لقد أفلت هذا الكلام من لساني. . . لا أريد أن أقول اللصوص، إنهم رجالك المغاوير قد نهبونا قليلاً. لا تغضب. . . لكل جواد كبوة. . . مُره أن يتم القراءة.

فقال بوجاتشيف:

ـ هيّا أتم القراءة.

واستمر أمين السر يقرأ:

«غطاءان، أحدهما هندي والثاني من قطن، قيمتها 4 روبلات. معطف من فراء الثعلب مبطن بجوخ قرمزي، قيمته 40 روبلاً. ثم معطف من جلد الأرنب، قُدّم إلى سعادتكم في الفندق وقيمته 15 روبلاً».

فصرخ بوجاتشيف وعيناه تقدحان شرراً:

ـ ما هذا الهذر؟

أعترف بأنني خفت على خادمي. وقد أراد أن يسترسل في شروح جديدة، إلا أن بوجاتشيف قاطعه، وهو ينتزع الورقة من بين يدي أمين السرّ ويرميها في وجهه، قال:

ـ كيف تجرؤ على إزعاجي بمثل هذه الترهات، أيها العجوز المجنون. نهبوك! كلام جميل. ألا تحمد الله، أيها العجوز الهرم، على أنك لم تشنق أنت وسيدك إلى جانب هؤلاء الخونة! معطف من

جلد الأرنب! أريد أن أريك معطفاً! هل تعلم أن في إمكاني أن آمر بسلخك حياً، وبدبغ جلدك ليصنع منه معطف؟

فأجاب سافلتش:

ـ إنك تعلم أنني خادم، وأن عليّ أن أحافظ على أموال سادتي.

وبدا بوجاتشيف في وضع من يريد أن يحافظ على وقاره وجلاله، فأشاح بوجهه، ومضى دون أن يضيف إلى ما قاله كلمة واحدة، يتبعه شفابرين و«القدماء»، وغادرت العصابة الحصن في نظام تام، وتبعها الشعب يريد أن يشيّع بوجاتشيف وبقيت وحيداً مع سافلتش. كان المسكين ما يزال ممسكاً «بالقائمة» يتأملها في أسف عميق.

لقد أراد أن يستفيد من حسن التفاهم الذي ساد بيني وبين بوجاتشيف إلا أنه لم ينجح في هذا المشروع المعقد. وأخذت ألومه على فرط إخلاصه هذا، ولم أستطع أن أمنع نفسي عن الضحك. قال:

ـ إضحك ما شئت يا سيدي، ولكن سترى حين ينبغي لنا أن نعوّض عن هذه الأشياء أن الأمر ليس مضحكاً إلى هذا الحد!

وسارعت إلى بيت القسّ آملاً أن أرى ماريا إيفانوفنا. فأبلغتني زوجته نبأ حزيناً قالت إن ماريا إيفانوفنا أصيبت بحمّى شديدة في الليل، ففقدت وعيها، وكانت تهذي. وأدخلتني زوجة القس إلى غرفة ماريا إيفانوفنا، فاقتربت من سريرها على مهل. إن التغير الذي ألمّ بملامح وجهها ليصعقني دهشة. لم تستطع المريضة أن تعرفني. بقيت أمامها مدة طويلة، دون أن أصغي إلى ما يقوله الأب جراسيم وزوجته الطيبة، وأغلب الظن أنهما كانا يحاولان مواساتي. حاصرتني أفكار سود. إن وضع هذه اليتيمة المسكينة، وبقاءها وحيدة بين عصاة أشرار، ثم عجزي عن القيام بشيء في سبيلها، إن ذلك كله

ليملؤني رعباً. على أن شفابرين هو الذي يقلقني أكثر من أي شيء آخر: لقد أولاه الغاصب سلطات واسعة، وأصبح آمر الموقع الذي تقيم فيه هذه الفتاة البائسة التي يكرهها ويحقد عليها، فهو إذن قادر على أن يفعل كل شيء. ماذا يجب أن أعمل؟ كيف أساعد ماريا إيفانوفنا؟ كيف أنقذها من يدي هذا الفاجر؟ لم يبق إلا وسيلة واحدة: أن أمضي إلى أورنبورغ في أقرب وقت، لأعجّل تحرير بيلوجورسكايا وأساهم في ذلك بكل ما أوتيت من قوة. عزمت أمري على الذهاب إلى أورنبورغ حالاً، فاستأذنت القسّ وآكولينا بامفيلوفنا، وأوصيتهما خيراً بتلك التي أعدها منذ الآن زوجةً لي، وتناولت يد الفتاة البائسة فقبلتها مغرقاً إياها بالدموع.

قالت امرأة القسّ وهي تشيعني إلى الباب:

ـ وداعاً يا بترو أندرفتش قد نلتقي في أيام أفضل. لا تنسانا، واكتب إلينا ما استطعت. لم يبق للمسكينة ماريا إيفانوفنا غيرك نصيراً وحامياً.

خرجت من الساحة الكبرى، وتوقفت لحظة أحيي المشنقة، ثم تركت الحصن متجهاً نحو أورنبورغ يصحبني سافلتش الذي يفعل كل ما أفعل.

كنت أسير غارقاً في تأملاتي حين سمعت ورائي، فجأة؛ وقع حوافر حصان، فالتفت فإذا بقوزاقي قادم من الحصن يعدو ورائي على حصان وقد أمسك بلجام حصان آخر، وجعل يشير إليَّ، فتوقفت عن المسير، وما لبثت أن عرفت فيه «الوكيل»، فلما وصل إليَّ، نزل عن حصانه ومدَّ إليَّ لجام الحصان الآخر وهو يقول:

ـ إن جلالته، يا صاحب النبالة، يهدي إليك حصاناً، «ويخلع» عليك معطفاً (كان على سرج الحصان معطفاً من جلد الخروف).

وأضاف وهو يتهته قائلاً:

ـ ثم إنه أهدى إليك كيساً من المال، إلا أنني أضعته في أثناء الطريق، فأرجو أن تصفح عني.

فرماه سافلتش بنظرة ارتياب، ودمدم قائلاً:

ـ أضعتها في أثناء الطريق؟ فما الذي يرن إذن في صدرك؟ ألا تستحي؟

فأجاب الآخر معترضاً دون أن ينتابه أي اضطراب:

ـ ما يرن في صدري؟ عفا الله عنك أيها الشيخ! إن ما تسمعه هو رنين اللجام لا رنين كيس.

فقطعت المناقشة بقولي:

ـ حسناً. أشكر عني من أرسلك. أما الكيس الضائع، فحاول أن تجده وليكن هدية مني إليك.

فقال وهو يدور بحصانه:

ـ ألف شكر يا صاحب النبالة. سأدعو لك بالخير على الدوام.

وما إن قال هذا الكلام، حتى قفل يعدو خبباً، وقد وضع إحدى يديه على صدره. ثم اختفى في طرفة عين. فارتديت المعطف، وامتطيت صهوة جوادي، واضعاً سافلتش ورائي.

قال الرجل العجوز:

ـ أرأيت يا سيدي؟ إن تقديم قائمة الحساب لهذا الحقير قد آتى أُكله! لقد أنّبه ضميره وندم على صنيعه! ورغم أن هذا الحصان الباشكيري ذا القوائم الطويلة وهذا المعطف المصنوع من جلد الخروف لا تساوي قيمتها نصف قيمة ما سرقه منا اللصوص، وما طاب لك أن تهديه إليه بإرادتك، فقد يفيداننا. والحاذق من حصّل من دينه الميت أيَّ مبلغ يقدر على تحصيله.

الفصل العاشر

حصار أورنبورغ

بعد أن احتل الجبال والوديان،
ألقي نظرة، من عل، كالنسر
إلى المدينة.
أمر بإقامة خيمة وراء المعسكر،
تخبأ فيها المدافع،
لتقاد أثناء الليل
إلى أمام المدينة.

كيراسكوف

فلما وصلنا إلى أورنبورغ رأينا جمهوراً من المحكومين بالأشغال الشاقة الذين حلقت رؤوسهم وشوّهت وجوههم بملاقط الجلادين يعملون في تحصين المدينة تحت رقابة عدد من جنود الموقع، فكان بعضهم ينقل على عربات صغيرة الصوالة التي تملأ الوادي، وبعضهم الآخر يحفر الأرض بالمرّ. وكان عدد من البنائين يأتي إلى الأسوار بالآجر يقوي متاريس المدينة. استوقفنا الحرّاس على الأبواب وطلبوا إلينا جوازات السفر، فلما علم الرقيب أنني آت من بيلوجورسكايا

مضى بي إلى بيت القائد رأساً.

وجدت القائد في حديقته يفحص أشجار التفاح التي عرّاها أيام الخريف، ويغطيها بالقش في كثير من العناية مستعيناً ببستاني عجوز. كان وجهه يشرق بالطمأنينة والعافية والبساطة، وظهرت عليه إمارات السرور لرؤيتي مرة أخرى، وأخذ يسألني عن الأحداث الفظيعة التي شهدتها، فقصصت عليه كل شيء تفصيلاً، فأصغى إلى كلامي في اهتمام كبير، مع استمراره على قطع الأغصان اليابسة.

قال حين أنهيت قصتي الحزينة:

ـ مسكين ميرونوف. إنني أرثي له. كان دابتاً ممتازاً. وكانت مدام ميرونوف سيدة ممتازة، ما أبرأها في تبخ الكمأة! وماذا هلّ بماشا، ابنة الدابت الرئيس (كان ضابطاً ممتازاً. وكانت مدام ميرونوف سيدة ممتازة، ما أبرعها في طبخ الكمأة! وماذا حلَّ بماشا، ابنة الضابط الرئيس؟).

فأجبت بأنها بقيت في الحصن في كنف امرأة القس. فقال:

ـ آي. آي. آي. لا يمكن الاعتماد ألى هؤلاء اللصوص! ما مسير هذه البنت المسكينة؟

فأجبت بأن بيلوجورسكايا ليست بعيدة، وأن سعادته قد لا يتخلف عن إرسال فرقة إليها لتحرير السكان المساكين.

فهزَّ القائد اللواء رأسه وبان على وجهه أنه غير مطمئن، قال:

ـ سنرى، سنرى. سنتكلم في هذا من بعد. والآن أدعوك إلى تناول الشاي، سيجتمع إندي مجلس الهرب بأدَ كليل، وفي إمكانك أن تؤتينا إندئذ مألومات دكيكة أن هذا الهكير بوجاتشيف وأن جيشه. والآن يمكنك أن تذهب لترتاه كليلاً.

مضيت إلى المسكن الذي أعادوه لي، فرأيت سافلتش بسبيل تهيئة

إقامتنا فيه. كنت في حالة فظيعة من القلق وفراغ الصبر. وفي وسع القارىء أن يتخيل بسهولة أنني لم أتخلف عن حضور المجلس الذي لا بد أن يكون له في مصيري تأثير كبير. وصلت إلى بيت اللواء في الساعة المحددة. فوجدت هنالك أحد موظفي المدينة، ومدير الجمرك، ووجدت عجوزاً قصيراً مُكرِشاً يرتدي ثوباً ملوناً من البروكار اللمّاع، أخذ يسألني عن مصير إيفان كوزمتش ويسميه «إشبينه»، وقاطع قصتي عدة مرات بأسئلة وملاحظات عميقة إن لم تدل على أنه رجل مثقف في علم الحرب فهي تدل على أنه ذو فكر ثاقب وذكاء مفطور. وفي أثناء ذلك توافد سائر المدعوين. فلما أخذ الجميع أماكنهم وقُدم إلى كل منهم قدح من الشاي، أخذ القائد يعرض الموقف في وضوح وتفصيل، وقال أخيراً:

ـ والآن أيها السادة يجب أن نقرر هل نصطنع مع العصاة أسلوب الهجوم أم أسلوب الدفاع. أما الهجوم فإنه يتيح لنا أن نأمل بالقضاء على العدو قضاءً أسرع، وأما الدفاع فهو أكثر ضماناً وأقل خطراً. . . فعلينا إذن بالاقتراع، وفقاً للترتيب القانوني، أي ابتداءً بالضباط الصغار. يا حضرة حامل العلم، تفضل بإبداء رأيك.

فنهضت، وبعد أن وصفت بوجاتشيف وعصابته بكلمات موجزة، أكدت أن هذا المحتال لا يستطيع بحال من الأحوال أن يقاوم قطعات نظامية.

ولاحظت على المستمعين أنهم لا يوافقون على رأيي هذا البتة، وأدركت أن الموظفين لا يرون فيّ إلا شاباً جريئاً متهوراً. وارتفعت في الحفل أصوات دمدمة، حتى لقد سمعت أحدهم يقول بصوت منخفض «هذا طفل غر»، والتفت القائد اللواء نحوي مبتسَماً يقول:

ـ يا حضرة الضابط حامل العلم، في مجالس الحرب ترتفع

الأصوات الأولى دائماً في تأييد الأعمال الهجومية: هذا أمر طبيعي. والآن فلنستمر في جمع الآراء. ما رأيك يا حضرة المستشار؟

فسارع العجوز القصير الذي يرتدي ثوباً من البروكار، سارع فأفرغ في جوفه البقية الباقية من فنجانه الثالث من الشاي الممزوج بكمية كبيرة من الكحول، ثم قال:

ـ أعتقد يا صاحب السعادة أن الأمر ليس أمر هجوم ولا دفاع.

فرد عليه اللواء، دهشاً، يقول:

ـ ولكن يا حضرة المستشار إن الحرب لا تعرف غير أسلوبين: أسلوب الدفاع وأسلوب الهجوم.

ـ جربوا، يا صاحب السعادة، أسلوب «الإفساد».

ـ بخ بخ. إنه لرأي يفيض بالحكمة! إن للحرب أسلوباً ثالثاً هو «أسلوبُ الإفساد». سننتفع بنصائحك، سنعلن أن من يأتينا برأس هذا السافل. يتناول مكافأة قدرها سبعون روبلاً، بل مائة روبل... نأخذها من المخصصات السرية...

فقاطعه مدير الجمرك قائلاً:

ـ أَقبل أن أسمَّى شاة كرخيزية لا مستشاراً إذا لم يسلمنا هؤلاء المجرمون زعيمهم مكتوف اليدين والرجلين!

فأجاب اللواء قائلاً:

ـ سنفكر في هذا الأمر، وسنتحدث فيه مرة أخرى. وإنما ينبغي لنا على أية حال أن نتخذ بعض التدابير العسكرية. أيها السادة، هلاّ أدليتم بآرائكم وفقاً للترتيب التصاعدي؟

فجاءت آراؤهم جميعاً تعارض رأيي، وذكروا أن القطعات ليست مأمونة الجانب، وأن الظروف متقلبة، وأن الحذر واجب إلى آخر ما هنالك. لقد كانوا يعتقدون جميعاً إن بقاءنا في عصمة المدافع وراء

الأسوار الصخرية العالية أسلم عاقبة من الخروج إلى الفلاة. وأخيراً هزَّ اللواء رماد غليونه بعد أن سمع جميع الآراء، وألقى الخطاب التالي:

ـ أيها السادة، أراني مضطراً إلى التصريح بأنني شخصياً أوافق رأي حامل العلم موافقة تامةً، لأن هذا الرأي يستند إلى جميع قواعد الخطط الحربية الصحيحة التي تؤثر الأعمال الهجومية على الأعمال الدفاعية دائماً.

وهنا توقف عن الكلام، وأخذ يحشو غليونه بالتبغ. وسررت بكلامه هذا الذي تملّق كبريائي، فألقيت نظرة شامخة على الموظفين، وكانوا يتهامسون وقد بدا عليهم القلق والامتعاض.

وأردف اللواء يقول وهو يطلق زفرة عميقة ويرسل إلى السقف سحابة كثيفة من الدخان:

ـ إلا أنني أيها السادة لا أجرؤ أن آخذ على عاتقي مثل هذه التبعة، والأمر يتعلق بسلامة هذا الإقليم التي عهدت إلينا بها مولاتنا الإمبراطورة، أمنا الرؤوم! ولهذا السبب انضم إلى الأغلبية التي ارتأت أن الخطة الأسلم عاقبة والأقل خطراً هي أن ننتظر العدو في داخل المدينة وأن نصد الهجوم بالمدفعية، وبالخروج إليه عندئذ إذا أمكن ذلك!...

فرأيت الموظفين يرشقونني بنظرة ساخرة بدورهم. وانتهى الاجتماع. واستأت من ضعف هذا المحارب القديم الذي قرّر، على خلاف آرائه الشخصية، أن ينقاد لرأي أناس جهلة تعوزهم الخبرة.

وما انقضت على هذا الاجتماع بضعة أيام حتى علمنا أن بوجاتشيف يقترب من أورنبورغ وفقاً لوعده، ورأيت جيش العصاة من أعلى أسوار المدينة، ولاحظت أن عددهم قد زاد عشرة أضعاف

عمّا كانوا يوم الهجوم الأخير الذي شهدته، وأنهم يملكون مدافع جديدة مما استولى عليه بوجاتشيف من الحصون الصغيرة التي وقعت في قبضته. فكرت في قرار المجلس العسكري، فقدرت أننا سنظل سجناء وراء أسوار أورنبورغ مدة طويلة، فكدت أبكي حنقاً.

لن أصف حصار أورنبورغ، فهذا من شأن التاريخ ولا يدخل في قصة أسرة. وحسبي أن أقول إنه كان شؤماً على السكان بسبب قلة تبصر السلطات. لقد عانى منه السكان مرَّ الجوع وسائر أنواع الكوارث.

أصبحت الحياة في أورنبورغ بشعة كريهة. كان السكان يتذمرون من غلاء المعيشة، وكان غلاء فظيعاً والحق يقال، وسرعان ما اعتادوا على القنابل التي كانت تسقط أحياناً في باحات بيوتهم، حتى إن الهجمات التي يقوم بها بوجاتشيف أصبحت لا تلفت انتباه الناس. وكنت أنا أختنق ضجراً، وكان الوقت يجري بطيئاً ثقيلاً. لم أكن أتلقى أية رسالة من بيلوجورسكايا، فقد كانت الطرق كلها مقطوعة. وأصبح انفصالي عن ماريا إيفانوفنا لا يُطاق، وكان جهلي كل شيء عن مصيرها يعذبني أكثر من أي شيء آخر. وكانت تسليتي الوحيدة هي النزهة على ظهر الحصان. فأنا أملك بفضل بوجاتشيف جواداً ممتازاً كنت أقاسمه طعامي الزهيد وأخرج به من المدينة في كل يوم أتبادل مع فرسان العدو طلقة نار. وكان تبادل الطلقات هذا ينتهي عادةً بنصر العصاة الذين لا يشكون جوعاً ولا عطشاً ولا ضعفاً لا هم ولا ما يمتطون من دواب.

كانت فرقة الفرسان الهزيلة التي نملكها لا تستطيع أن تصمد لهم وأن تتغلب عليهم. وكانت مدفعيتنا الجائعة تخرج بدورها في بعض الأحيان، إلا أن عمق طبقة الثلج المتراكم على الأرض لا تتيح لها

التغلب على فرسان العدو المبعثرين. كانت المدفعية تلقي قذائفها عبثاً من أعلى الأسوار، حتى إذا خرجت إلى ميدان القتال غاصت في الثلج ولم تستطع التقدم بسبب ضعف الخيل التي تجرها.

تلك كانت خطتنا الحربية! وذلك كان ما أَسماه موظفو أورنبورغ بالحكمة والحذر والتبصر.

وفي ذات يوم بينما نحن نشتت ونصدّ قطعة كبيرة من قطعات العدو، رأيت قوقازياً بقي وراء رفاقه، فهممت أن أضربه بسيفي التركي، لولا أنه خلع قبته فجأة وهتف بي:

ـ مرحباً بترو أندرفتش. كيف حالك؟

فعرفت فيه الوكيل، وسررت برؤيته.

قلت:

ـ مرحباً بك يا ماكسيمتش، هل تركت بيلوجورسكايا منذ مدة طويلة؟

ـ كلا يا عزيزي بترو أندرفتش، كنت فيها أمس، وإنني أحمل رسالة إليك.

فصحت وقد احمر وجهي من فرط الانفعال:

ـ أين هي؟

قال وهو يضع يده على صدره:

ـ هي معي، لقد وعدت بالاشا أن أوصلها إليك بأية وسيلة.

قال ذلك ومدَّ إليّ ورقة مطوية، ثم مضى يعدو.

فضضت الرسالة وقرأت فيها الأسطر التالية وأنا أرتجف:

«لقد شاء الله أن يحرمني أبي وأمي دفعة واحدة، ولم يبق لي على الأرض أهل ولا من يحميني. وإنما أكتب إليك الآن لعلمي بأنك كنت دائماً تبدي اهتماماً بي، ولأنك أهل لمعونة جميع الناس.

أرجو من الله أن تصل إليك هذه الرسالة بوسيلة من الوسائل. وقد وعد ماكسيمتش بأن يسلّمك إياها. لقد سمعته بالاشا يقول إنه كثيراً ما يراك حين تخرج من الأسوار، وإنك لا تحافظ على نفسك، فكأنك لا تفكر في أولئك الذين يدعون الله ليل نهار أن يحفظك ويصونك، والدموع تملأ مآقيهم. لقد ظللت مريضة خلال مدة طويلة. وحين أبللت من مرضي جاء ألكسي إيفانتش الذي حلّ محل المرحوم والدي، فأجبر الأب جراسيم على أن يسلمني إليه مهدداً إياه ببوجاتشيف. فأنا أسكن الآن منزلنا إلا أنني مراقبة. وألكسي إيفانتش يحملني على الزواج به، ويدعي أنه أنقذ حياتي بسكوته على كذب آكولينا بامفيلوفنا التي زعمت للمجرمين أنني إبنة أخيها. ولكن الموت أسهل عليّ من الزواج برجل مثل ألكسي إيفانتش. إنه يعاملني معاملة قاسية، وهو يهددني بأنه، إن لم أرجع عن قراري وأقبله زوجاً، سيقودني إلى معسكر اللص لألقى هناك المصير الذي لقيته ليزافتا خارلوف. وقد طلبت إليه أن يدعني أفكر في الأمر، فقَبِلَ أن ينتظر ثلاثة أيام أخرى، حتى إذا لم أرتضه بعلاً في نهاية هذه الأيام الثلاثة، لم يعف عني البتة. يا عزيزي بترو أندرفتش، إنك الشخص الوحيد الذي يمكن أن يحميني، وأن يعمل شيئاً في سبيل بائسة مسكينة أطلب إلى اللواء وإلى جميع القادة أن يرسلوا إلينا نجدة بأقصى سرعة ممكنة، وتعال أنت إذا أمكن ذلك.

يتيمتك المخلصة

«ماريا إيفانوف»

كدت أجن لدى قراءة هذه الرسالة. وعدت إلى المدينة لا أشفق على حصاني المسكين من وخز المهاميز. وجهدت أثناء الطريق أن

أهتدي إلى وسيلة أنقذ بها هذه الفتاة الشقية، ولكن دون جدوى. فلما وصلت إلى المدينة اتجهت إلى بيت اللواء رأساً ودخلت إلى غرفته كالسهم.

كان اللواء يسير في طول الغرفة وعرضها وهو يدخن غليونه، فلما رآني أدخل توقف عن المسير. لعلهُ دهش لما رأى في وجهي من شرود، وقد سألني على كل حال، في غير قليل من اللطف والرفق، عمّا أتى بي إليه على هذا الوجه من السرعة الشديدة، قلت:

ـ إنني أتجه إليك يا صاحب السعادة كما يتجه ابن إلى أبيه. أتوسل إليك أن لا تمنع عني حمايتك. إن المسألة تتعلق بسعادة حياتي كلها!

فقال العجوز مضطرباً:

ـ ما هنالك يا عزيزي؟ ماذا أستطيع أن أعمل في سبيلك؟ قل!

ـ تستطيع يا صاحب السعادة أن تأمر لي بقطعة من الجنود، وبخمسين قوزاقياً، أمضي على رأسهم لأطهر حصن بيلوجورسكايا.

فظل اللواء يتفرّس فيّ، ولعله اعتقد أنني فقدت صوابي (وهو في الحق لم يخطيء كثيراً).

قال أخيراً:

ـ ما هذا الكلام؟ تطهر حصن بيلوجورسكايا؟

فأجبت في حماسة:

ـ أتعهد لك بالنصر، دعني أمضي...

فقال وهو يهز رأسه:

ـ كلا أيها الشاب. إن العدو يستطيع في مسافة بعيدة كهذه أن يقطع جميع طرق المواصلات وأن يحتل النقطة الاستراتيجية الأساسية، فيصل إلى نصر كامل، وما دامت المواصلات مقطوعة...

عراني الخوف إذ رأيته يعالج أموراً استراتيجية، فقاطعته قائلاً:

ـ إن ابنة الضابط الرئيس ميرونوف قد بعثت إليّ برسالة تطلب فيها أن أهبّ إلى نجدتها، فإن شفابرين يحملها على الزواج به.

ـ صحيح؟ آه من شفابرين هذا! إنه عاهر كبير. إن وقع يوماً في قبضتي فسأقضي عليه بالموت ثم أقتله رمياً بالرصاص فوق أسوار الحصن. ولكن إلى أن يحين الحين فلنتجمّل بالصبر.

فصحت وقد خرجت عن طوري:

ـ الصبر؟ ولكنه يكون أثناء ذلك قد تزوج ماريا إيفانوفنا!

فاعترض اللواء يقول:

ـ ليس هذا بالفاجعة العظمى. إن زواجها بشفابرين، إلى أن يحين الحين، خير لها وأبقى، لأنه يحميها، حتى إذا قتلناه لم تعدم من يخطبها. إن النساء الجميلات لا يبقين عوانس مدة طويلة. والوقوع على زوج أسهل على الأرملة منه على الفتاة العذراء.

فقلت وأنا أرغي وأزبد حنقاً.

ـ أفضّل أن أموت على أن أتركها لشفابرين!

فقال الرجل العجوز:

ـ ها! الآن فهمت. أنت إذن تحب ماريا إيفانوفنا! هذا شيء آخر. مسكين أيها الشاب! ولكنني لا أستطيع أن آمر لك بقطعة من الجنود وبخمسين قوزاقياً! هذا أمر خطر لا أستطيع أن أتحمل تبعته.

فخفضت رأسي وقد أخذ مني اليأس مأخذه، وسيطر عليّ كرب شديد وفجأة خطرت على بالي فكرة. وسيرى القارىء ما هي هذه الفكرة حين يقرأ الفصل التالي كما كان يقول الروائيون في الزمان القديم.

الفصل الحادي عشر

عند العصاة

كان الأسد في تلك اللحظة قد شبع
مع إنه وحش ضار!
سأله بصوت رقيق ناعم:
ما أتيت تصنع في عريني.

«آ. سومارو كوف»

تركت اللواء وهرعت إلى منزلي، فاستقبلني سافلتش بديباجته المعتادة:

ـ أية لذة تجد في مقارعة هؤلاء اللصوص؟ ليس هذا شأن سيد مثلك! إن الكارثة تأتي على حين غفلة! ستموت بلا جاه ولا مجد!! أأنت تحارب الأتراك أو السويديين؟ إنه لأثمٌ أن يدور على لساني ذكر هؤلاء الذين تمضي إلى قتالهم.

فقاطعت خطابه بسؤاله عن المال الذي أملك.

ـ كم هو المبلغ الذي أملكه بالكامل؟

فأجاب وقد ظهرت على وجهه علائم الارتياح:

ـ تملك قدراً لا بأس به. صحيح أن اللصوص لم يدعوا ركناً من

دون أن ينبشوه، إلا أنني استطعت أن أخفي قدراً من المال غير يسير.

قال ذلك وأخرج من جيبه كيساً مملوءاً بالنقود.

قلت:

ـ حسناً يا سافلتش. أعطني نصف هذا المال وخذ الباقي. إنني ذاهب إلى بيلوجورسكايا.

قال العجوز الطيب بصوت مرتجف:

ـ ألا تخاف الله يا بني؟ إلى أين تريد أن تمضي في هذه الظروف التعيسة، واللصوص يسيطرون على جميع الطرق؟ إذا كان لا يهمك أمر نفسك فارفق بوالديك على الأقل! إلى أين أنت ذاهب؟ لماذا؟ إنتظر قليلاً، فسيأتي الجيش عما قليل، فيقبض على جميع المجرمين، فتستطيع يومئذ أن تمضي إلى حيث تشاء.

بيد أن قراري كان قاطعاً لا رادَّ له فقلت:

ـ إن الوقت أضيق من أن يتسع للأخذ والرد. يجب أن أُسافر. لا أستطيع البقاء هنا. لا تحزن يا سافلتش! إن الله رحيم: قد نلتقي مرة أُخرى. لا تضن على نفسك بشيء، ولا تقتصد في إنفاق المال. إشترِ لنفسك ما أنت في حاجة إليه، ولو اضطررت أن تدفع الثمن أضعافاً مضاعفة. إنني أهب لك هذا المال.

وإذا لم أعد خلال ثلاثة أيام...

فقاطعني سافلتش قائلاً:

ـ ماذا تقول يا سيدي؟ لن أدعك تسافر وحدك! لا تطلب إليّ هذا ولو في المنام. إن كنت قد أزمعت سفراً، فأنا رفيقك، ولو اضطررتُ أن أمضي سيراً على الأقدام. لن أتركك! أأبقى وراء سور من صخر وأنت في الفلاة؟ كلا يا سيدي، إنني لم أُجنَّ بعد. إفعل ما شئت يا سيدي، فلن أتخلّف عنك.

كنت أعرف بالتجربة أن المناقشة مع سافلتش ضرب من العبث. فأذنت له أن يمضي يهيىء حاجات السفر. وما هي إلا نصف ساعة حتى كنت على صهوة جوادي، وحتى كان سافلتش يمتطي كديشاً صغيراً هزيلاً أعرج، كان أحد سكان المدينة قد تنازل له عنه لأنه أصبح لا يملك ما يقيم به أوده.

وصلنا إلى أبواب المدينة، فتركنا الخفراء نمرّ، وغادرنا أورنبورغ.

كان الظلام يهبط قليلاً قليلاً. والسبيل إلى بيلوجورسكايا يمرُّ ببلدة بردسكايا، عرين بوجاتشيف. وقد أمّحت معالم الطريق بسبب الثلج، إلا أن الأرض كلها تحمل آثار حوافر الخيل التي تتجدد في كل يوم وكنت أعدو خبباً، وكان سافلتش لا يستطيع أن يتبعني من بعيد إلا في كثير من العناء، ولا ينقطع عن الهتاف بي:

ـ لا تسرع كل هذا الإسراع يا مولاي، أناشدك المسيح! لا تسرع كل هذا الإسراع!. إن كديشي الهالك لا يستطيع أن يساير عملاقك ذا القوائم الطويلة... ثم علام هذه السرعة؟ أنحن ذاهبون إلى عرس؟ إننا معرّضون في كل لحظة لضربة فأس... بترو أندرفتش... بنيّ... بترو أندرفتش... رباه! إن مولاي الصغير يسعى إلى حتفه!...

وسرعان ما تراءت لنا أنوار بردسكايا. اقتربنا من الوديان التي تحمي البلدة حماية طبيعية، وكان سافلتش ما يزال يتبعني مردداً عويله ونحيبه. كنت آمل أن أدور حول البلدة دون أن يلحق بنا أذى، ولكنني بصرت فجأة على ضوء الشفق بخمسة من الموجيك مسلحين بدبابيس. كان هؤلاء طليعة الحرس على عرين بوجاتشيف. فلما نادونا، وكنت لا أعرف كلمة السرّ، حاولت أن أَجتازهم صامتاً، إلا أنهم سرعان ما أحاطوا بي والتفوا حولي. وأمسك

أحدهم بلجام حصاني، فسللت سيفي وهويت به على رأسه، فترنح وترك لجام حصاني رغم أن قبعته قد صانت رأسه من الأذى. واضطرب رفاقه فتراجعوا، فانتهزت هذه الفرصة فهمزت حصاني وعدوت مسرعاً. كان يمكن أن يحميني ظلام الليل الهابط من كل أذى، إلا أنني التفت ورائي فلم أر سافلتش. إن العجوز المسكين لم يستطع وهو على ظهر كديشه الأعرج أن يفلت من أيدي اللصوص. ما العمل؟ انتظرت بضع لحظات، حتى إذا أيقنت أنهم قد قبضوا عليه قفلت راجعاً أسرع إلى نجدته.

فلما اقتربت من الوادي سمعت ضجّةً من بعيد، وسمعت عجعجة وصوت سافلتش. فسارعت خطو حصاني، وما هي إلا برهة حتى رأيتني بين رجال الحرس من الموجيك الذين أوقفوني منذ لحظات. لقد أنزلوا سافلتش عن كديشه وهم يهمون الآن أَن يشدوا وثاقه، فلما رأوني اندفعوا إليّ وهم يصرخون، وأنزلوني عن حصاني في طرفة عين، وصرَّح لي أحدهم، وهو رئيسهم فيما يظهر، أنه سيقودنا إلى القيصر، ثم أضاف إلى ذلك قوله:

ـ ومولانا هو الذي سيقرر هل تشنقون على الفور، أو تُمْهَلون حتى يلوح الفجر.

وكما فعل سافلتش لم أظهر أية مقاومة، وقادونا منتصرين مظفَّرين.

اجتزنا الوادي ودخلنا البلدة. كانت البيوت كلها مضيئة. وكنت تسمع صخباً وجلبة في كل مكان. ولقيت في الطريق طائفة كبيرة من الناس، ولكن لم يبصر بنا أحد من فرط الظلام، ولم يعرف أحد أنني ضابط من أورنبورغ. وقادونا رأساً إلى عزبة تقوم عند ملتقى عدد من الشوارع، ويحرس مدخلها عدد من براميل الخمر ومدفعان.

قال أحد الموجيك:

ـ هوذا القصر. سنبلغ القيصر أمركم.

ثم دخل القرية.

نظرت إلى سافلتش. كان العجوز المسكين يصلّب ويصلي بصوت خافت. وانتظرنا مدة طويلة عاد الموجيك بعدها يقول:

ـ أدخل. لقد أمر مولانا بإدخال الضابط.

دخلتُ العزبة، أو القصر كما يسميه الفلاحون. كان يضيء الغرفة قنديلان وقد فرشت جدرانها بورق ذهبي اللون، وكان كل ما عدا ذلك عادياً مما يوجد في أية عزبة، كالمقاعد والمنضدة والمغسلة المشدودة بحبل والمنشفة المعلقة بمسمار والمدفأة المزين سطحها بآنية من الآجر. كان بوجاتشيف جالساً في وقار تحت الأيقونات، وقد ارتدى قفطاناً أحمر، وكسى رأسه بقبعة عالية، ووضع يده على خصره. وكان عدد من كبار أنصاره يحف به مصطنعاً نوعاً من الذل الكاذب والخضوع الزائف. كان واضحاً أن وصول ضابط من أورنبورغ قد أثار فضول العصاة على نحو قوي عنيف، وأن بوجاتشيف كان يستعد لاستقبالي في وقار فلما دخلت عرفني على الفور، فتبدد ما قد اصطنعه من عبوس، وقال:

ـ أَهذا أنت يا صاحب النبالة؟ كيف حالك؟ وما الذي أتى بك إلى هنا؟

ـ كنت ماضياً لبعض شؤوني، فأوقفني رجالك.

ـ ما هي هذه الشؤون؟

لم أعرف بم أجيب. وظن بوجاتشيف أنني أحرص على أن لا أبوح بشيء أمام رجاله، فأمرهم بالخروج، فأطاعوا إلا اثنين ظلاً في مكانهما لم يبرحاه.

قال بوجاتشيف:

ـ تحدث أمامهما، فإنني لا أخفي عنهما شيئاً.

ألقيت على هذين الرجلين اللذين يؤثرهما بوجاتشيف نظرة شزراء. كان أحدهما عجوزاً قميئاً مقوّس المظهر أبيض اللحية، ليس فيه ما يلفت النظر غير شريط أزرق فوق معطف رمادي. إلا أنني لن أنسى رفيقه ما حييت: رجل فارع القامة، ضخم، عريض المنكبين، يبدو في الخامسة والأربعين من عمره، ذو لحية حمراء كثة، وأنف غير ذي منخرين، وقد انتشرت في جبينه وعلى خديه بقع حمراء تضفي على وجهه العريض المجدّر معنى لا يوصف، وقد ارتدى قميصاً أحمر، وجُبّة كرخيزية، وسروالاً قوقازياً. عرفت فيما بعد أن الأول عريف فارّ يدعى بيلوبورودوف، وأن الثاني وهو يدعى آفاناسي سوكولوف ويُلقب باسم خلوبوشا مجرم عريق في الإجرام، فرّ من مناجم سيبريا ثلاث مرات.

لقد أسلمتني رؤية هؤلاء الناس الذين وقعت بينهم على غير إرادة مني، أسلمتني إلى ذهول عميق، رغم ما أعانيه من قلق يخنق صدري، وسرعان ما ردّني بوجاتشيف إلى الواقع إذ خاطبني بقوله:

ـ تكلم. ما هو الأمر الذي أخرجك من أورنبورغ؟

خطرت على بالي فكرة غريبة. قلت في نفسي إن العناية الإلهية إذ ألقتني مرة أخرى بين يدي بوجاتشيف كأنما تتيح لي أن أنفذ الخطة التي عزمت على تنفيذها. فقررت أن أنتهز هذه الفرصة السانحة، فإذا أنا أجيب على سؤاله، قبل أن يتسع وقتي للتفكير فيما أنا مقدم عليه، قلت:

ـ كنت ماضياً إلى بيلوجورسكايا لنجدة يتيمة يسيؤون معاملتها هنالك.

قال الغاصب والشرر يتطاير من عينيه:

ـ من ذا الذي يجرؤ من رجالي أن يسيء معاملة يتيمة؟ قل لي من هو هذا المجرم حتى أُنزل فيه عقابي الشديد، ولو كان في حكمة الملك سليمان الحكيم!

ـ إنه شفابرين. لقد حجز في بيته تلك الفتاة التي رأيتَها مريضة في منزل امرأة القس، وهو يريد أن يكرهها على الزواج به.

قال بوجاتشيف بصوت مدوٍ:

ـ سيرى شفابرين مغبة فعلته، سيرى كيف أعاقب الذين يركبون هواهم ويسيئون معاملة الشعب. لسوف يُشنق.

فقال خلوبوشا بصوت متهدج:

ـ إسمح لي أن أقول إنك تعجلت في تعيين شفابرين آمراً للموقع، وإنك تتعجل الآن في الحكم عليه بالشنق. لقد استثرت سخط القوزاقيين حين أقمت عليهم رئيساً من النبلاء، فلا تستثر سخط النبلاء بقتل أحدهم لوشاية ترامت إليك.

قال العجوز ذو الشريط الأزرق:

ـ ليس علينا أن نشفق عليهم ولا أن نعفو عنهم، وليس إعدام شفابرين بالكارثة العظمى على كل حال. إلا أن من المفيد أيضاً أن نسأل حضرة الضابط في لطف ولباقة عما أتى به إلى هنا. فإن كان لا يعترف بك ملكاً، فليس له أن يلتمس منك إحقاق الحق. وإن كان يعترف بك ملكاً فماذا كان يعمل إلى جانب أعدائك حتى الآن في أورنبورغ؟ هلاّ أمرت بأن نمضي به إلى العنبر ندفئه قليلاً؟ يخيل إليّ أن قادة أورنبورغ هم الذين أرسلوه إلى هنا.

إن منطق هذا المجرم العجوز لمفحم. وسَرَت في جسمي كله رعدة قوية، وأنا أفكر في هؤلاء الناس الذين وقعت في قبضتهم.

ولاحظ بوجاتشيف اضطرابي فقال وهو يغمز بعينه:

ـ يخيل إليَّ أن المارشال على حق، فما رأيك؟

ردَّت إليَّ هذه اللهجة الساخرة شجاعتي، فأجبت في هدوء بأنني في قبضة يده، وأنه يستطيع أن يعاملني المعاملة التي تحلو له.

فأجاب بوجاتشيف يقول:

ـ حسناً. والآن قل لي في أية حال تعيش المدينة؟

ـ لا يعوزها شيء بحمد الله.

ـ لا يعوزها شيء؟ إن الناس يموتون جوعاً!

لقد كان كلام الغاصب صحيحاً، إلا أنني التزمت ما قطعت على نفسي من عهد، فأخذت أؤكد له أن تلك إشاعة كاذبة، وأن أورنبورغ في بحبوحة من العيش.

قال العجوز معترضاً يخاطب بوجاتشيف:

ـ ها أنت ترى أنه يكذب عليك وجهاً لوجه. لقد انعقد إجماع الفارين على أن المجاعة تهيمن على المدينة، وأن الأمراض متفشية فيها، وأن الناس يأكلون الجثث المتفسخة، وأن الذين يجدون ما يأكلونه من هذه الجيف المتفسّخة يعدّون أنفسهم سعداء، إلا أن سعادته يؤكد أن كل شيء على ما يرام. إذا أردت أن تُعدم شفابرين فاعدم معه هذا الفتى على مشنقة واحدة، فما يشمت أحد منهما بالآخر.

وكأن أقوال هذا العجوز اللعين قد أثرت في نفس بوجاتشيف، ولكن خلوبوشا انبرى يعارض زميله، لحسن الحظ، فقال:

ـ إسمع يا ناومتش، إنك لا تفكر إلا في الشنق والقتل. أهذه شجاعة؟ إن المرء حين ينظر إليك ليستغرب أن تكون حياً إلى الآن. إنك من القبر قاب قوسين أو أدنى، ثم لا يمنعك هذا من تقتيل

الناس! أما يكفيك ما أهرقت حتى الآن من دماء؟

فاعترض بيلوبورودوف يقول:

ـ من سمعك تقول هذا الكلام حسبك قديساً هبط من السماء! من أين لك هذه الشفقة؟

ـ لا شك أنني ارتكبت الخطايا كذلك (وهنا شدَّ قبضة يده الناتئة عظامها، وحَسَرَ كمه فكشف عن ذراعه ذات الشعر الكثيف)، وأن هذه اليد قد أجرمت إذ سفكت دم كثير من المسيحيين، إلا أنني فتكت بأعداء لا بضيوف، فتكت بهم مقاتلاً في ساحات الوغى وفي الغابات المظلمة لا جالساً في بيتي وراء المدفأة، قتلتهم بفؤوس ودبابيس لا بوشايات حمقاء.

فأشاح العجوز وجهه ودمدم بضع كلمات مثل: «حشر أنفه».

هنا صرخ خلوبوشا قائلاً:

ـ ماذا تجمجم أيها العجوز الهرم؟ سأريك كيف يكون حشر الأنف! إنتظر قليلاً، فسيحين حينك. سيرسل إليك الله من يقطِّع أوصالك!... وبانتظار ذلك، حذار أن أنتف لحيتك!...

هنا انبرى بوجاتشيف يقول في وقار:

ـ حضرات القادة، كفاكم شجاراً. لن تكون مصيبة أن تترنح كلاب أورنبورغ كلها على مشنقة واحدة، وإنما المصيبة الكبرى أن تتشاجر كلابنا نحن، وأن يمزق بعضها بعضاً. هيَّا تصالحا.

لم يقل خلوبوشا وبيلوبورودوف شيئاً، وألقى كل منهما على الآخر نظرة قاتمة. وأدركت أن عليَّ أن أغير مجرى الحديث، فقد ينتهي بما لا ينفعني. فالتفتّ نحو بوجاتشيف، وقلت له بلهجة مرحة:

فصدع سافلتش بالأمر وهو يقول:
ـ ألف شكر يا سيدي، ألف شكر يا مولانا، يا أبانا الرحيم. أسأل الله أن يمد بعمرك حتى تبلغ مائة عام، جزاءً لك على أنك أشفقت على عجوز مثلي. سأدعو لك بالسلامة ما حييت، ولن أجيء بعد الآن على ذكر المعطف المصنوع من فراء الأرنب.

كان يمكن أن يُحنق ذكر هذا الفراء بوجاتشيف. إلا أن الغاصب لم يسمع هذا الكلام لحسن الحظ، أو أنه احتقر هذه الإشارة التي جاءت في غير محلها فلم يولها اهتماماً. أخذت الخيل تعدو وكان الناس يتوقفون في الشارع وينحنون في تحية عميقة، وكان بوجاتشيف يوزع التحيات ذات اليمين وذات الشمال. وما هي إلا لحظة حتى خرجنا من البلدة سائرين في طريق مستقيم.

سهل على القارىء أن يفهم ما كنت أعانيه في تلك اللحظة من مشاعر. بعد ساعات قليلة سألقى تلك التي كنت أعتقد أنني فقدتها إلى الأبد. حاولت أن أتصور اللحظة التي سنلتقي فيها. وفكرت في هذا الرجل الذي يقبض على ناصية مصيري بيديه، والذي أصبحت بتعاون ظروف عجيبة مشدوداً إليه برابطة خفية. وتذكرت القسوة المتهورة والغرائز الدموية التي تضطرم في نفس هذا الذي تطوّع لإنقاذ حبيبتي! كان بوجاتشيف يجهل أنها ابنة الضابط الرئيس ميرونوف. وفي وسع شفابرين، إذا هو أُحرج، أن يكشف له عن هذه الحقيقة، وفي وسع بوجاتشيف أن يطلع عليها بوسيلة أخرى... فما يكون مصير ماريا إيفانوفنا في هذه الحال؟ سَرَت في جسمي كله قشعريرة قوية، وانتصب شعر رأسي...

وفجأة قطع بوجاتشيف تأملاتي بأن طرح عليّ هذا السؤال:
ـ فيم يفكر صاحب النبالة؟

فأجبته قائلاً:
ـ فيم أفكر؟ أفكر أنني ضابط نبيل كنت بالأمس أحاربك، فإذا أنا اليوم أسافر في عربتك، وإذا سعادة حياتي كلها رهن مشيئتك.
ـ أخائف أنت؟

فأجبته بأنني، وقد أطلق سبيلي في المرة الأولى، أصبحت أطمع لا في عفوه فحسب بل في معونته كذلك.

قال الغاصب:
ـ شهد الله أنك على حق. لقد رأيتَ كيف كان رجالي يرمقونك بنظرة شزراء حتى أن العجوز زعم في هذا الصباح نفسه أنك لست إلا جاسوساً، وأن الواجب يقضي أن ننكّل بك وأن نأمر بشنقك. إلا أنني رفضت أن أوافقه على ذلك. (هنا خفض صوته حتى لا يسمعه سافلتش والتتري)، لأنني ما زلت أذكر قدح الخمر الذي قدمته لي، والفراء الذي أهديته إليّ. ومن هذا يتضح لك أنني لست شيطاناً يمتص الدماء كما يتصور أصحابك.

تذكرت الاستيلاء على بيلوجورسكايا، ولكنني لم أر من الضروري أن أناقشه في رأيه، فسكتّ ولم أجب بشيء.

وبعد لحظات من الصمت سألني بوجاتشيف:
ـ ماذا يقولون عني في أورنبورغ؟
ـ يقولون إن التغلب عليك ليس بالأمر السهل. الحق أنك فرضت نفسك.

فما إن قلت هذا الكلام حتى انبسطت أسارير بوجاتشيف وارتاح لما حقق طموحه من نصر. قال جذلاً:
ـ نعم يا عزيزي. إنني أجيد فن الحرب! هل يعلمون في أورنبورغ شيئاً عن النتيجة التي أسفرت عنها معركة يوزبيفا؟ هل

يعلمون أنني قتلت أربعين قائداً (جنرالاً) وأسرت أربع فرق؟ ثم ما رأيك أنت؟ هل يمكن أن يقاس بي ملك بروسيا؟

بدا لي تبجّح هذا اللص مضحكاً، فسألته:

ـ وأنت ما رأيك؟ هل تعتقد أنك تستطيع الانتصار على فردريك؟

ـ على فيدور فيدوروفش؟ ولِمَ لا؟ لقد انتصرت على قادتكم، وقادتكم هؤلاء كانوا قد انتصروا عليه! لقد كان الحظ حليفي. . . في جميع المعارك حتى الآن. ولكن مهلاً! سترى ما يحدث حين أتجه إلى موسكو!

ـ إذن فأنت تفكر في الذهاب إلى موسكو؟

هنا سهم وجه بوجاتشيف لحظة، ثم قال وقد خفض صوته:

ـ الله أعلم. ما كل ما يتمنى المرء يدركه. إن حريتي محدودة، فرجالي مسرفون في الحذر. وهؤلاء أُناس أنذال. يجب أن أكون يقظاً. لسوف يفدون رؤوسهم بتسليم رأسي عند أول هزيمة.

قلت:

ـ أليس من الأسلم إذن أن تتركهم طائعاً قبل أن يخونوك، وأن تمضي إلى الإمبراطورة تلتمس عفوها؟

فابتسم بوجاتشيف ابتسامة من أفاق من سكرته، ثم قال:

ـ لا. لقد فات أوان التوبة. لن يُعفى عني. سأمضي في عملي كما بدأته. ومن يدري، فقد أفوز. ألَم يستطع جريشا أوتربيف أن يتسنّم العرش بموسكو؟

ـ ولكن ألا تدري كيف كانت خاتمته؟ لقد رموه من النافذة، ذبحوه، أحرقوا جسمه، شحنوا برماد جثته أحد المدافع، وأذروه في مهب الريح. . .

قال بوجاتشيف في نوعٍ من الإلهام الوحشي:

ـ إسمع. سأروي لك قصةً سمعتها في طفولتي من عجوز كلموكية:

«قال النسر للغراب في ذات يوم: قل لي أيها الطائر العجوز، كيف تعيش أنت ثلاثمائة عام، ثم لا أبلغ أنا من العمر إلا ثلاثة وثلاثين عاماً على أكثر تقدير؟ فأجاب الغراب قائلاً: ذلك أنك يا عزيزي تشرب دماً حياً، بينما آكل أنا الجيف. فقال النسر. سأفعل مثلما تفعل. ومضى الغراب والنسر كلاهما، فإذا هما يريان حصاناً ميتاً، فهبطا إليه وانقضّا عليها. أما الغراب فأخذ ينقر ويتلمّظ. أما النسر فذاق الجيفة مرة أولى، فمرة ثانية، ثم حرك جناحيه وقال لرفيقه: «لا يا عمّ. لأن أشرب الدم ساخناً ولو مرة وحيدة أفضل من أن أطعم الجيف ثلاثمائة عام. والعفو على الله. . .» كيف ترى هذه القصة الكلموكية؟

قلت:

ـ جميلة جداً. ولكنني أرى أن من يعيش على السلب والقتل فهو يأكل جيفاً.

فألقى عليّ بوجاتشيف نظرة دهشة ولم يجب بشيء، ثم صمتنا وغرق كل منا في تأملاته الخاصة. وأخذ التتري يغني أغنية حزينة. ثم غفا سافلتش وهو يترنح فوق مقعده. وكانت العربة تنهب الطريق المفروشة بالثلج نهباً. . .

وفجأة بصرت على ضفاف اليائق الوعرة، قرية أطلت علينا ببرج كنيستها وسياج أسوارها، وما هي إلا ربع ساعة حتى كنا في بيلوجورسكايا.

الفصل الثاني عشر

يتيمة

مسكينة شجرة التفاح التي في بيتنا.
مالها رأس ولا أغصان.
مسكينة أميرتنا الغالية
ما لها أب ولا أم
ما لها أحد يزينها بالحلى
ما لها أحد يبارك زواجها...

«من أغاني الأعراس»

وقفتَ العربة أمام منزل الآمر. وكان الشعب يتبعنا راكضاً إذ عرف مركبة بوجاتشيف من رنين أجراسها. ولقينا شفابرين على عتبة الباب. كان يرتدي لباساً قوزاقياً وكان قد أرخى لحيته. وهبّ هذا الخائن إلى مساعدة بوجاتشيف على النزول من العربة، وراح يتزلف إليه بأجبن العبارات مُظهراً ولاءه معبراً عن فرحه. واضطرب حين رآني ولكنه سرعان ما استعاد رباطة جأشه، فمدّ إليّ يده وهو يقول:

ـ أصبحت إذن من جماعتنا! حقاً لقد آن الأوان...

فأدرت ظهري له ولم أقل شيئاً.

انقبض صدري حين رأيتني في هذه الغرفة التي أعرفها حق المعرفة. كانت شهادة المرحوم آمر الموقع ما تزال معلقة على الحائط تذكّر على حزن وحسرة بالعهد الذي انقضى. جلس بوجاتشيف على الديوان الذي كان إيفان كوزمتش يغفو فوقه تهدهده ثرثرات زوجه. فقدم له شفابرين قدحاً من الفودكا بنفسه، فابتلعه بوجاتشيف دفعةً واحدة وقال وهو يشير إليّ بإصبعه.

ـ قدم قدحاً لصاحب النبالة.

فتقدم مني شفابرين، إلا أنني أشحت بوجهي مرة أخرى، فبدا عليه الاضطراب. لقد أدرك ولا شك، بما يملك من نفاذ البصيرة، إن بوجاتشيف غير راض عنه، فظهر عليه الوجل، ورماني بنظرات تفيض شكاً وارتياباً. سأله بوجاتشيف عن حالة الموقع، وعمّا يُشاع عن تقدم العدو، إلى آخر ما هنالك، ثم باغته على حين غرة بهذا السؤال:

ـ قل لي يا عزيزي، من هي تلك الفتاة التي تسجنها في بيتك؟ أحب أن أراها!

فامتقع وجه شفابرين حتى أصبح كوجوه الموتى اصفراراً. ثم قال بصوت مرتجف:

ـ ليست سجينة يا سيدي، وإنما هي مريضة... راقدة في غرفتها.

فأجاب الغاصب وهو ينهض عن الديوان:

ـ إمضِ بي إليها.

وإذا أصدر الزعيم أمراً فليس ثمّة مجال للمناقشة. كان لا بد لشفابرين من أن ينفذ الأمر، فصعد به نحو غرفة ماريا إيفانوفنا. وتبعتهما، فإذا شفابرين يتوقف على السلم قائلاً:

- مولاي! لك أن تطلب إليّ كل ما تشاء، ولكن لا تسمح لغريب أن يدخل إلى مخدع زوجتي.

فما سمعت هذا الكلام حتى ارتجفت من أخمص قدمي إلى قمة رأسي، فصحت بشفابرين، وأنا مستعد لأن أمزقه إرباً:

- إذن تزوجت!

فقاطعني بوجاتشيف بقوله:

- على مهلك هذا من شأني. وأنت يا شفابرين، ليس لك أن تتعلل ولا أن تتبرّم. سواء أكانت الفتاة امرأتك أم لم تكن، فلي أن أحضر إليها من أشاء من الناس. إتبعني يا صاحب النبالة.

توقف شفابرين مرة أخرى أمام الغرفة ليقول بصوت متهدّج:

- مولاي، إنها مصابة بحمى شديدة، وهي تهذي بلا انقطاع منذ ثلاثة أيام...

- إفتح هذا الباب.

أخذ شفابرين يبحث في جيوبه، مدة طويلة، ثم أعلن أنه نسي المفتاح. فما كان من بوجاتشيف إلا أن ركل الباب بقدمه، فإذا بالقفل ينكسر، وإذا بالباب يُفتح، فدخلنا الغرفة. كدت أقع مغشياً عليّ. رأيت ماريا إيفانوفنا، وقد اشتد نحولها وشحب وجهها وتشعث شعرها، جالسةً على الأرض، في ثوب بسيط ممزق مما ترتديه الفلاحات، وأمامها جرة ماء مغطاة بقطعة من الخبز، فلما رأتني أدخل انتفضت وانطلقت من صدرها صيحة. ولا تسلني عمّا فعلته عندئذ، فإنني لا أتذكر من ذلك شيئاً الآن.

ألقى بوجاتشيف على شفابرين نظرة ساخرة، وقال له وهو يبتسم ابتسامة مرّة:

- إنه لمستشفى ممتاز، مستشفاك هذا!...

ثم اقترب من ماريا إيفانوفنا وخاطبها بقوله:

- قولي لي أيتها الحمامة، لماذا يعاقبك زوجك؟ ما مأخذه عليك؟

- زوجي؟ ليس هو بزوجي. لن أكون زوجته في حياتي، لقد آثرت أن أموت على أن أتزوجه، وسأموت إن لم يخلصني أحد منه.

فألقى بوجاتشيف على شفابرين نظرة حانقة وقال:

- ها! لقد جرؤت إذن على خداعي. هل تدري أيها النذل ما تستحقه من عقاب.

فما كان من شفابرين إلا أن جثا على ركبتيه. فرأيت الاشمئزاز يتغلب في نفسي على جميع عواطف الكره والغضب. فأخذت أنظر في احتقار إلى هذا السيد النبيل يتهالك على قدمَيْ قوزاقي هارب من السجن.

وهدأ رَوْع بوجاتشيف فقال:

- سأعفو عنك في هذه المرة، ولكني سأذكّرك بهذه الخطيئة عند أول خطيئة أخرى ترتكبها.

ثم التفت إلى ماريا إيفانوفنا، فقال لها في كثير من اللطف:

- أخرجي من هنا أيتها الجميلة. إني أرد إليك حريتك. أنا القيصر.

فألقت عليه ماريا إيفانوفنا نظرة سريعة، وأدكت أنها أمام قاتل أبويها، فغطت وجهها وسقطت مغشياً عليها، فهرعت إليها أريد أن أسعفها، إلا أن بالاشا اقتحمت الغرفة في هذه اللحظة، وأخذت تسعف سيدتها، فترك بوجاتشيف الغرفة؛ ونزلنا جميعاً إلى البهو.

- ها قد أنقذنا حبيبتك الجميلة يا صاحب النبالة! ما رأيك في أن نستدعي القس، وأَن نجبره على مباركة زواجك بقريبة زوجته؟ سأكون أنا أبا العريس، ويكون شفابرين شاهد الزواج. سنحتفل

بالعرس: «نأكل ونشرب ثم البابَ عليكما نغلق».
هنا وقع ما توقعته. فإن شفابرين قد فقد صوابه حين سمع اقترا
بوجاتشيف. فقال في غضب شديد:
ـ لقد أخطأتُ يا مولاي إذ كذبت عليك، إلا أن جرينيف يكذب
عليك أيضاً. ليست هذه الفتاة قريبة زوجة القس. إنها إبنة إيفان
ميرونوف الذي أُعدم حين الاستيلاء على هذا الحصن.
فرشقني بوجاتشيف بنظرات ملتهبة، وسألني مرتبكاً:
ـ ما هذا؟
فأجبت رابط الجأش:
ـ لقد صدق شفابرين.
فقال بوجاتشيف وقد تجهمت أسارير وجهه:
ـ لم تنبئني بهذا من قبل!
ـ أكان في وسعي أن أعلن أمام رجالك أن إبنة ميرونوف على قيد
الحياة! لو قد قلت ذلك لمزّقوها إرباً، ولما أمكن إنقاذها.
فقال بوجاتشيف ضاحكاً:
ـ هذا لعمري صحيح. ما كان لهؤلاء السكيرين أن يدعوا الفتاة
وشأنها. ولقد أحسنت زوجة القس صنعاً حين أخفت عنهم هذه
الحقيقة.
انتهزت فرصة مرحه، فتابعت كلامي أقول:
ـ إسمع، لا أعرف كيف أدعوك، ولا أُحب أن أعرف كيف
أدعوك... ولكن يشهد الله أنني مستعد لأن أدفع حياتي ثمناً لما
قدّمت لي من صنيع. على أنني أرجوك أن لا تكلفني شططاً فتطلب
إليَّ أمراً لا يتفق مع شرفي ووجداني المسيحي. أتمَّ ما بدأته. دعني
أمضي بهذه اليتيمة إلى حيث يشاء لنا الله أن نمضي. ولك علينا عهد

الله، أينما كنت ومهما يقع لك من أحداث، أن ندعو لك الله في كل
يوم نسأله المغفرة عن خطاياك.
وبدا على اللص أن روحه العاتية قد تأثرت بهذا الكلام قال:
ـ لك ما تشاء. أنا إن عاقبت كان عقابي صارماً وإن عفوت كان
عفوي كاملاً، تلك عادتي. خذ حبيبتك الجميلة، وامض بها إلى
حيث تشاء، وإني لأسأل الله أن يبارككما وأن يحميكما من كل
سوء.
ثم التفت إلى شفابرين فأمره بأن يعطيني «رخصة مرور» في جميع
المراكز والحصون التابعة لسلطته، وكان شفابرين كالمصعوق من
هول ما يرى، ثم مضى الغاصب يفتش الحصن مصطحباً شفابرين،
وبقيت أنا في البيت متعللاً بأنني أريد أن أعد للسفر عدته.
هرولت إلى الطابق الأعلى، فوجدت الباب مغلقاً، فقرعته،
فأجابت بالاشا تقول:
ـ من الطارق؟
فذكرت إسمي، فسمعت صوت ماشا الساحر يجيب:
ـ إنتظر يا بترو أندرفتش. إنني أرتدي ثيابي. إذهب إلى آكولينا
بامفيلوفنا وسألحق بك على الفور.
فصدعت بالأمر، ومضيت إلى منزل القسّ. وهرع الأب جراسيم
وزوجته إلى لقائي، وكان سافلتش قد أبلغهما نبأ قدومي.
قالت زوجة القس:
ـ مرحباً ببترو أندرفتش. لقد شاء الله إذن أن نراك مرة أخرى. كنا
نذكرك في كل يوم. وماريا إيفانوفنا! لشد ما تألمت أثناء غيابك، هذه
الحمامة الغالية! ولكن قل لي يا بني، ماذا عملت حتى استطعت أن تتفاهم
مع بوجاتشيف؟ كيف لم يقتلك؟ يُشكر على كل حال، هذا اللص...

فقاطعها الأب جراسيم يقول:

- كفى يا هذه. ليس ضرورياً أن تجهري بكل ما تعرفينه. إن الثرثرة الطويلة لا تؤدي إلى النجاة والسلامة! أدخل يا بني بترو أندرفتش، إننا لم نرك منذ مدة طويلة.

وقدمت إليَّ زوجة القس ما تيسر من طعام وشراب، دون أن تكف عن ثرثرتها لحظة واحدة. فروت لي كيف أكرههما شفابرين على تسليم ماريا إيفانوفنا، وكيف أخذت ماريا تبكي وتنتحب لأنها لا تريد أن تفارقهما، وكيف أنها ظلت على صلة بماريا عن طريق بالاشا (وهي فتاة كانت تعرف كيف تقنع الوكيل نفسه)، وأفهمتني أن بالاشا هي التي نصحت ماريا بالكتابة إليّ. ورويت لهما بدوري خلاصة ما لقيت من أحداث، فما إن عرفا أن بوجاتشيف على علم بأكذوبتهما حتى اضطربا وأخذا يرسمان إشارة الصليب.

قالت زوجة القس:

- اللهم عونك. اللهم أسألك أن تمرَّ السحابة دون أن تنفجر العاصفة. ولكن ما هذا الألكسي إيفانوفتش؟ إنه حقاً لحقير.

في هذه اللحظة فُتح الباب وظهرت ماريا إيفانوفنا باسمة. لقد تركت ما كانت ترتديه من ثياب الفلاحات، وعادت في ثياب كالتي كانت ترتديها سابقاً، وهي ثياب بسيطة، على ذوق.

تناولت يدها وظللت مدة طويلة لا أستطيع أن أقول كلمة واحدة. صمتنا كلانا وقد طفح قلبانا سعادة، وأدرك القسّ وزوجه أنهما زائدان فتركانا وحيدين. نسينا كل شيء، وظللنا نتحدث دون أن نستطيع التوقف. قصّت عليَّ ماريا إيفانوفنا كل ما وقع لها منذ الاستيلاء على الحصن. فوصفت لي الحالة الفظيعة التي كانت فيها، وما عانته من متاعب سببها لها هذا الحقير الكريه شفابرين. وذكرنا

الأيام الخوالي، فأخذنا نبكي كلانا... وطفقت أخيراً أشرح لها ما أعزم عليه من أمر: أفهمتها أن من المستحيل أن تبقى في حصن يخضع لسلطان بوجاتشيف ويأمره شفابرين، وأن من المستحيل كذلك أن أمضي بها إلى أورنبورغ التي تعاني ما تعاني من هذا الحصار الطويل. ولم يبق لها من أهل في هذا العالم. فاقترحت عليها أن نمضي إلى منزل أهلي في الريف. فترددت في أول الأمر، لخوفها من أن أبي لا يشعر نحوها بشيء من المحبة أو العطف، إلا أنني هدأت روعها وطمأنتها. كنت أعلم أن أبي سيعتقد أن مما يشرفه أن يؤوي في بيته إبنة محارب قديم قضى نحبه في سبيل الوطن. وقلت لها أخيراً:

- عزيزتي ماريا إيفانوفنا. إنني أعدّك زوجتي منذ الآن. إن ظروفاً عجيبة جمعت بين قلبينا إلى الأبد، ولن يقوى شيء في هذا العالم على التفريق بيننا بعد الآن.

- فأصغت إلى كلامي في بساطة دون أن تظهر شيئاً من تواضع كاذب أو تعلّل معقد. كانت تشعر أن مصيرها مرتبط بمصيري، ولكنها كررت ما سبق أن قالته، وهو أنها لن تصبح زوجتي قبل أن يوافق أبواي على هذا الزواج. لم أعارضها في ذلك، وتعانقنا في حرارة وصدق وإخلاص، وعلى هذا النحو تم بيننا الاتفاق على كل شيء.

وبعد ساعة جاءني أحد الوكلاء برخصة المرور مذيلةً بتوقيع مجعلك هو توقيع بوجاتشيف، ودعاني إلى المثول بين يدي الغاصب. فلما مضيت إلى بوجاتشيف وجدته يتهيأ للعودة. لا أستطيع أن أشرح شرحاً دقيقاً ما شعرت به وأنا أفارق هذا الرجل الفظيع الذي كان وحشاً ضارياً مع جميع الناس... إلاّي. علام

الكذب؟ الحق أنني شعرت نحوه في تلك اللحظة بحب قوي.

كنت أتمنى من أعماق قلبي أن أحمله على ترك عصابة اللصوص التي يرأسها، وأن أنقذ حياته قبل أن يسبق السيف العذل. إلا أن شفابرين والجمهور كانوا يحيطون بنا فلم أستطع أن أفصح عن كل ما يعتلج في قلبي.

ثم افترقنا على أحسن ما يكون صديقان، ولمح بوجاتشيف آكولينا بامفيلوفنا بين الجموع المحتشدة، فلوّح لها بيده مهدداً على سبيل الدعابة وغمز بعينه غمزة ذات دلالة. ثم صعد المركبة وأمر الحوذي أن يعود به إلى بردسك. وحين سارت الخيل أطلَّ من العربة مرة أخرى وصاح بي قائلاً:

ـ وداعاً يا صاحب النبالة! قد نلتقي في المستقبل.

ولقد التقينا فعلاً، ولكن يا لها من ظروف تلك التي التقينا فيها!.

غاب بوجاتشيف، وظللت مدة طويلة أتأمل السهل اللاحب الذي تجتازه مركبته سريعة رشيقة. وتفرق الحشد. وغاب شفابرين. وعدت إلى منزل القسّ. كان كل شيء قد أُعدَّ للسفر. وكنت لا أحب أن أتأخر أكثر مما تأخرت. فوضعنا أشياءنا جميعها في العربة القديمة التي كان يملكها الآمر. وسرعان ما كدن الحوذي المركبة. ومضت ماريا إيفانوفنا تزور قبر أبويها اللذين دُفنا وراء الكنيسة وأردت أن أصحبها ولكنها رَجَتْني أن أدعها تمضي إلى القبر وحيدة. وعادت بعد بضعة لحظات وهي تذرف الدموع. وجاءت العربة، وخرج الأب جراسيم وزوجته إلى الباب يشيعاننا، واستوينا في المركبة نحن الثلاثة: أنا، وماريا إيفانوفنا، وسافلتش. وقد جلس إلى جانب الحوذي.

قالت زوجة القسّ الطيبة:

ـ وداعاً يا ماريا إيفانوفنا، يا حمامتي العزيزة. وداعاً يا بترو أندرفتش، ياذا القلب النبيل. أرجو لكما رحلة موفقة وحياة سعيدة.

وسارت بنا المركبة. ولمحت شفابرين ينظر إلينا من خلال نافذة بيت الآمر. كانت ملامحه تعبر عن حنق قاتم. ولم أشأ أن أظهر انتصاري على عدو أُذلّ، فأدرت وجهي، واجتزنا الأبواب تاركين هذا الحصن إلى الأبد.

الفصل الثالث عشر

الاعتقال

ـ لا تلمني يا سيدي فواجبي يقضي أن أرسلك
فوراً إلى السجن.
ـ لك ما تشاء. إنني مستعد، ولكن أملي كبير بأن
تتفضّل فتصغي إلى حججي.

«كيناجنين»

هكذا وجدتني مع هذه الفتاة الرائعة التي كان مصيرها يقلقني أشد القلق في هذا الصباح نفسه. كنت لا أكاد أصدق أن هذه السعادة التي تغمرني واقع لا حلم. كان يتراءى لي أن كل ما وقع ليس إلا حلماً لا غد له. وكانت ماريا إيفانوفنا تتأمل الطريق ساهمة سادرة كأنها لم تثب إلى نفسها بعد. كنا صامتين: إن قلبينا أملأ من أن نستطيع الحديث. وانقضت ساعتان دون أن نشعر بانقضائهما، فإذا نحن نصل إلى حصن مجاور خاضع كذلك لسلطان بوجاتشيف، فهبّوا هنالك إلى إبدال خيل العربة، بسرعة وأظهر القوزاقي الذي كان عيّنه بوجاتشيف آمراً لهذا الحصن كثيراً من الحفاوة بنا، فأدركت أنهم يعدونني أثير بوجاتشيف ومن المقربين إليه، وذلك بفضل

ثرثرات الحوذي الذي يقود مركبتنا.

وتابعنا سيرنا، وأخذ الظلام يهبط، وكنا نقترب من مدينة صغيرة زعم الآمر أن فيها قطعة كبيرة من الجنود تتأهب للإلتحاق بجيش بوجاتشيف فلما وصلنا إلى هذه المدينة الصغيرة استوقفنا عدد من الخفراء، وسألوا من نحن فأجاب الحوذي يقول: «صديق صاحب الجلالة مع السيدة زوجته»، فإذا بجماعة من الفرسان تحيط بنا فجأة، وتأخذ تكيل لنا ألواناً من الشتائم. صاح بي رقيب المساكن:

ـ إنزل يا صديق الشيطان... إنزل إلى حمام ساخن أنت والسيدة زوجتك!...

فنزلت من المركبة وأمرت أن يمضوا بي إلى آمر الموقع. فلما رأى الجند أنني ضابط كفوا عن شتائمهم. وتقدمني رقيب المساكن يقودني إلى مقر المقدّم، فاقترب مني سافلتش يدمدم بقوله: «شيء عظيم! صديق صاحب الجلالة! هربنا من الدب فوقعنا في الجُبّ. رباه! تُرى ما النهاية التي سنؤول إليها؟». وتبعتنا المركبة.

وما هي إلا خمس دقائق حتى وصلنا إلى منزل تخرج منه أنوار ساطعة، فتركني الرقيب في حراسة رجاله ودخل يعلن وصولنا، ثم ما لبث أن عاد يعلمني أن صاحب النبالة الرفيعة لا يتسع وقته للقائي الآن، وأنه أمر بوضعي في السجن وبإدخال السيدة إليه.

فصرخت في غضب شديد:

ـ ماذا؟ أهو مجنون؟

فأجاب يقول:

ـ لا أدري يا صاحب النبالة، إلا أن صاحب النبالة الرفيعة أمر بأن نضع نبالتكم في السجن وأن ندخل إليه السيدة زوجة نبالتكم، يا صاحب النبالة.

فاندفعت نحو الباب، ولم يدر في خلد الجنود أن يستوقفوني، ودخلتُ قُدُماً إلى غرفة رأيت فيها ستةً من الضباط يقامرون. كان المقدّم هو الذي يوزع الورق، وما كان أشد دهشتي حين نظرت إليه عن كَثَب فعرفت فيه إيفان إيفانوفتش زورين الذي علّمني لعب البليار وغلبني في فندق سمبرسك.

فهتفت أقول:

ـ أهذا ممكن؟ إيفان إيفانوفش!

ـ ها... بترو أندرفتش! أية ريح ساقتك إلينا؟ من أين أنت آت؟ أهلاً وسهلاً! تعال شاركنا اللعب.

ـ شكراً! أفضل أن تأمر لي بمنزل أبيت فيه.

ـ مالك وللمنزل! ستبيت عندي!

ـ لا أستطيع. لست وحدي!

ـ تعال أنت ورفيقك.

ـ لست في صحبة رفيق... إنها... سيدة.

ـ سيدة؟ أين عثرت عليها يا عزيزي؟

قال زورين ذلك ثم أرسل صفرة مضحكة قهقه لها الجميع، فاضطربت أشد الاضطراب.

وتابع زورين كلامه يقول:

ـ حسناً، سنهيىء لك منزلاً تبيت فيه ولكن هذه خسارة... كان يمكن أن نسهر الليلة معاً كما كنا نفعل في السابق.

ثم التفت إلى الجندي يقول:

ـ ماذا تنتظر؟ لماذا لم تدخل صديقة بوجاتشيف؟ هل مانعت في الدخول؟ قل لها إنه لا خوف عليها! إنني إنسان نبيل لا أكره أحداً على ما لا يحب. ليس لها أن تتدلل!

فتدخلت أقول:

ـ ما هذا الكلام؟ ليست هذه السيدة صديقة بوجاتشيف؟ إنها ابنة الضابط الرئيس ميرونوف، حرّرتها من الأسر، وأنا ذاهب بها الآن إلى أرضنا لأتركها في كنف أهلي.

ـ ما هذا الكلام؟ إذن فالشخص الذي أبلغوني نبأ اعتقاله منذ قليل هو أنت؟ ما معنى هذا كله؟ إنني لا أفهم...

ـ سأروي لك كل شيء فيما بعد، وإنما أرجوك الآن أن تطمئن هذه الفتاة المسكينة التي روّعها فرسانك.

فنهض زورين من مكانه على الفور، وخرج بنفسه إلى الشارع يعتذر لماريا إيفانوفنا عمّا وقع من التباس لا إرادة له فيه، وأمر عريف المساكن بأن يُعدّ لسكناها أجمل بيت في المدينة، أما أنا فمكثت عنده.

وبعد أن تناولنا طعام العشاء بقينا وحدنا فقصصت له ما وقع لي، فكان يصغي إلى حديثي في انتباه شديد، حتى إذا فرغت من الكلام هزّ رأسه وقال:

ـ هذا كله معقول يا عزيزي، إلا أن ثمة شيئاً لا أفهمه: ما حاجتك إلى الزواج؟ إنني إنسان شريف، إنني ضابط، وليس بي من حاجة إلى خداعك. صدقني إذا قلت لك إن الزواج سخف كبير! ليس من شأنك أن تتورط بامرأة وأن تعنى بأطفال صغار! دعك من هذا، واسمع ما أقوله لك: تخلص من ابنة الضابط الرئيس. لقد طهرتُ طريق سمبرسك فأصبح خالياً من أي خطر. أرسل الفتاة في الغداة وحيدة إلى أبويك، وامكث أنت هنا في فرقتي. دعك من العودة إلى أورنبورغ، وإلا فقد تقع مرة أُخرى في قبضة العصاة، فما تستطيع التخلص منهم بمثل تلك السهولة. ثم ينقضي جنون الغرام

ويمسي كل شيء على ما يرام.

ورغم أنني لم أوافق زورين كل الموافقة، فقد شعرت أن الواجب يقتضي وجودي في جيوش الإمبراطورة، فقررت أن أعمل بنصيحة زورين: أرسل ماريا إيفانوفنا إلى أهلي وأبقى في فرقة زورين.

وجاء سافلتش يخلع ملابسي، فذكرت له أن عليه أن يتهيأ للسفر غداً مع ماريا إيفانوفنا، فأخذ في أول الأمر يمانع.

- ما هذا الكلام يا سيدي؟ كيف تريد مني أن أتركك؟ ومن ذا الذي يُعنى بك إذا أنا تركتك؟ وما عسى أن يقول أبواك، إذا أنا تركتك؟

ولما كنت أعرف عناد صاحبي، فقد قررت أن آخذه بالرفق واللين وأن أُصارحه بكل شيء. قلت:

- أرجوك يا صديقي العزيز أرخيب سافلتش! لا ترفض لي هذا الطلب. أحسن إليَّ بتحقيق هذا الطلب. لست في حاجة إلى من يخدمني، ولسوف يقلقني جداً أن تسافر ماريا إيفانوفنا وحدها. وإن أنت خدمت ماريا فإنما تخدمني أنا، لأنني عازم عزماً أكيداً على الزواج بماريا متى سمحت الظروف بذلك.

هنا ضم سافلتش يديه إحداهما إلى الأخرى وظهرت في وجهه علائم دهشة بعجز الكلام عن وصفها، وأخذ يقول:

- تتزوج بها؟ الولد يريد أن يتزوج!... وما عسى أن يقول أبواك في هذا الأمر؟ وما عسى أن يكون رأي أمك؟

- لعلهما يوافقان حين يعرفان ماريا إيفانوفنا. ثم إنني أعتمد عليك. إن أبويّ يثقان بك، ولا شك أنك ستشجعهما على هذه الموافقة، أليس كذلك يا سافلتش؟

فأجاب:

- عزيزي بترو أندرفتش. صحيح أنك أصغر سناً من أن تتزوج ولكن ماريا إيفانوفنا آنسة ممتازة، ومن الخطأ أن تفوِّت هذه الفرصة؟ نعم نعم سأصحبها، سأصحب هذا الملاك الهابط من السماء، وسأقول لأبويك، في إخلاص الخادم الأمين، إن خطيبةً كهذه يجب أن لا تُطالَب بمهر.

فشكرت لسافلتش شهامته، ورقدت في غرفة زورين. كنت في حالة من الانفعال والحماسة، فأخذت أُثرثر، وظهر على زورين في أول الأمر أنه مستعد للحديث، ولكن سرعان ما قلّ كلامه وتشوّش شيئاً بعد شيء. حتى إذا طرحت عليه سؤالاً أخيراً كان جوابه أن أخذ يشخر وأخذ أنفه يصفِّر. فانقطعت عن الكلام ثم ما لبثت أن اقتديت به.

وفي صباح اليوم التالي ذهبت إلى ماشا أطلعها على ما عزمت عليه من أمر، وقد حبّذته لأنها رأت فيه عين الحكمة والصواب. وكان على فرقة زورين أن تترك المدينة في ذلك اليوم نفسه، فالوقت ضيق يجب أن لا يضيع منه شيء، فما لبثت أن ودّعت ماريا إيفانوفنا وأنا أعهد بها إلى سافلتش وأحمِّله رسالة إلى أبوي. أخذت ماريا إيفانوفنا تبكي وقالت في لطف.

- في رعاية الله يا بترو أندرفتش. لا يعلم إلا الله هل نلتقي مرة أخرى أو لا نلتقي. ولكنني لن أنساك ما حييت. ستبقى وحدك في قلبي إلى أن ألفظ آخر أنفاسي.

لم أستطع أن أجيبها بشيء، لأنني لم أشأ أن أظهر للناس العاطفة التي تعتلج في قلبي. حتى إذا سافرت ماريا إيفانوفنا عدت إلى بيت زورين حزيناً صامتاً. وأراد أن يواسيني، وأحببت أنا أن أسرِّي عن نفسي وأن أبدِّد كآبتي، فقضينا سحابة النهار في صخب وعربدة.

حتى إذا أقبل المساء تركنا المدينة لنمضي إلى العمل.

كان ذلك في أواخر شهر شباط (فبراير)، وكان فصل الشتاء الذي يعرقل الأعمال الحربية مشرفاً على نهايته، وكان قادتنا يتهيئون للشروع في عمل مشترك حاسم، وكان بوجاتشيف لا يزال يحاصر أورنبورغ. فاستطاعت قطعاتنا أن تتلافى متأهبة لتطويق عرين اللصوص، وأخذت القرى المتمردة تستسلم لدى رؤية جيوشنا، وراحت عصابات العصاة تتبعثر في كل مكان كلما اقتربنا منها، وبات كل شيء يبشر بنهاية سريعة موفقة.

وما لبث الجنرال الأمير جالتسين أن أحرز في تاتيشيفا انتصاراً حاسماً على بوجاتشيف، فشتت شمل عصاباته، وحرر أورنبورغ، ولاح أن الفتنة قد شارفت على الانتهاء، وأُرسل زورين يلاحق فلول الباشكير العصاة الذين كانوا يهربون قبل أن نصل إليهم. ثم أدركنا الربيع في قرية تترية. كانت الأنهار قد بدأت تفيض فانقطعت الطرق. فاضطررنا إلى التوقف عن العمل، وكنا نسرّي عن أنفسنا بالتفكير في خاتمة هذه الحرب المملة، التي أشهرناها على لصوص وعلى همج.

إلا أن بوجاتشيف كان لا يزال طليقاً. ثم لم يلبث أن ظهر في مناجم سيبيريا، وأخذ يجمع عصابات جديدة ويستأنف جرائمه. وذاعت أنباء انتصاراته مرة أخرى. وسرعان ما طرق أسماعنا نبأ استيلائه على قازان واتجاهه نحو موسكو... فأقلق ذلك قادة الجيش أيما قلق، بعد أن هدهدهم هذا الحلم العذب وهو تدمير اللص الحقير.

صدر الأمر إلى زورين باجتياز نهر الفولغا والاتجاه بسرعة نحو سمبرسك حيث أحرزت الفتنة انتصارات سريعة. فلما تصورت أنني سأتمكن من المرور بأرضنا، فأعانق أبويّ، وأرى ماريا إيفانوفنا،

بلغتُ من شدة الفرح أنني أخذت أقفز كطفل، وأقبّل زورين، وأُردد بلا انقطاع «إلى سمبرسك، إلى سمبرسك». فكان زورين يزفر ثم يقول وهو يهز كتفيه:

ـ لا. لا. إن نهايتك لسيئة إن أنت تزوجت سيكون في ذلك ضياعك.

اقتربنا من ضفاف الفولغا. واحتلت الفرقة قرية س... وقضت فيها ليلتها. وكان علينا أن نجتاز النهر في بكرة اليوم التالي. قال لي عمدة القرية إن جميع القرى الواقعة على الضفة الأخرى قد التحقت بالثورة، وإن عصابات بوجاتشيف تطوف المنطقة كلها. فأقلقني هذا النبأ كثيراً، وشعرت باضطراب كبير، ولم أجد إلى الراحة سبيلاً. إن أرض أبي واقعة على بعد ثلاثين فرسخاً وراء الضفة الثانية. وسألت هل من وسيلة إلى إيجاد قارب أجتاز به النهر. إن جميع الفلاحين يتعاطون الصيد.

ـ حذار! إنه لمن الخطر أن تسافر وحدك. إنتظر حتى الصباح، فسنكون أول مَنْ يجتاز النهر، فنمضي إلى زيارة أهلك يصحبنا خمسون فارساً، تفادياً لكل خطر.

أصررت على رأيي. وأُعد القارب، فاستويت فيه مع اثنين من المجدفين. وانفصلنا عن الشاطيء وأخذت المجاديف تضرب الماء. كانت السماء صافية، والقمر ساطعاً، والجو ناعماً. وكان الفولغا يجري في عظمة وجلال. وكان القارب ينزلق على صفحة المياه المظلمة في ترنح يسير. وانقضى على ذلك نصف ساعة. كنت قد تركت العنان لخيالي يعبث ما شاء له العبث، كنت أُفكر في هدوء الطبيعة، وأحوال السياسة، والحب، الخ... حتى وصلنا إلى منتصف النهر، وفجأة تبادل الرجلان بضع كلمات بصوت منخفض فثبت إلى نفسي، وسألتهما:

ـ ماذا تقولان؟

فأجابا وهما ينظران إلى جهة النهر:

ـ لا ندري ما هذا! الله يعلم ما هو!...

فنظرت فإذا أنا أبصر في ضوء القمر الشاحب شيئاً يتحرك على صفحة الماء في اتجاه مجرى النهر. كان هذا الشيء المجهول يقترب منا. فأمرت الرجلين أن يقفا منتظرين.

وجاءت سحابة فغطت القمر، وأصبح الشبح المتحرك مظلماً. وزاد اقترابه منا، إلا أنني لم أستطع تمييزه بعد. قال الرجلان:

ـ ولكن ما عسى أن يكون هذا؟ إنه ليس شراعاً ولا صارياً.

وانقشعت السحابة عن وجه القمر، فإذا نحن نرى في ضوئه منظراً رهيباً. إنها مشنقة نُصبت فوق رمث[1] يأتي نحونا. كان على المشنقة ثلاثة مشنوقين. سيطر عليّ نوع من الفضول المرضي. أردت أن أرى وجوه هذه الضحايا. فأمرت الرجلين أن يحاذيا الرمث، فاصطدم قاربي بالمشنقة العائمة، فقفزت إلى الرمث، فإذا أنا أمام ثلاث جثث تعيسة رهيبة. كان القمر يلقي على وجوهها المشوّهة نوراً واضحاً. أما الأول فهو شوفاشي[2] عجوز، وأما الثاني فهو فلاح روسي قويّ بدين يبدو في العشرين من عمره، وأما الثالث فقد شُدهت حين نظرت إليه ولم أستطع إلا أن أرثي لحاله، إنه فانكا، فانكا المسكين الذي دفعته حماقته إلى الالتحاق بالثائرين. ورأيت لوحة سوداء قد عُلّقت فوق رؤوسهم، وكُتبت عليها بأحرف بيض هذه العبارة: «لصوص وعصاة». وكان الرجلان ينتظرانني وهما يمسكان الرمث

(1) الرمث: خشب يضم بعض إلى بعض ويركب في الماء.

(2) الشوفاش: قوم من أصل فنلندي يقيمون على نهر الفولغا (إقليم سمبرسك، وقازان، الخ...).

بالكلابة. فعدت إلى القارب وتابع الرمث سيره الجنائزي. وظللنا مدة طويلة نميّز المشنقة في الظلام. ثم غابت عن أعيننا ووصل قاربنا إلى ناحية عالية وعرة من الضفة الثانية.

نقدت الرجلين أجراً كبيراً، وقادني أحدهما إلى عمدة القرية الذي يقيم في مكان قريب من النهر. فلما علم العمدة أنني أطلب خيلاً نظر إليّ في أول الأمر نظرة متكبرة، إلا أن دليلي همس في أذنه ببضع كلمات، فإذا خشونته تنقلب حالاً إلى حفاوة بالغة، وما هي إلا لحظات حتى كانت العربة معدّة، فصعدت إليها وأمرت الحوذي بالمضي إلى قريتي.

سارت العربة بسرعة، مارةً بقرىً نائمة. كنت لا أخشى إلا شيئاً واحداً، هو أن أُوقف في الطريق. ولكن لئن كان ما رأيته في الفولغا دليلاً على وجود ثائرين، فهو كذلك دليل على قوة السلطات. وكنت على كل حال أحمل رخصة السفر التي يذيّلها توقيع بوجاتشيف وأحمل كذلك أمر السير الذي يمهره توقيع العقيد زورين. إلا أنني لم ألق أحداً. ولما طلعت تباشير الصباح رأيت نهراً ورأيت السّهل الذي تقوم وراءه قريتنا. وراح الحوذي يضرب الخيل بالسوط. وما هي إلا ربع ساعة حتى كنت في قرية س... ولكن القصر الذي يقيم فيه سيد القرية يقع في آخرها. وأخذت الخيل تعدو بسرعة كبيرة. وفجأة أخذ الحوذي يستوقفها بشدّ اللجم شداً قوياً في وسط الشارع.

سألته في لهفة:

ـ ماذا هنالك؟

فأجاب وهو لا يوقف الخيل الجامحة إلا في كثير من العناء:

ـ إن الطريق مسدودة.

نظرت فإذا أنا أرى حاجزاً رُفع في منتصف الطريق، وقام إلى جانبه حارس مسلح بدبّوس. واقترب الفلاح فرفع قبعته، وطلب إليّ إبراز جواز السفر.

فسألته قائلاً:

- ما هذا الحاجز؟ ومن ذا تراقب؟

فأجاب وهو يحك ظهره:

- لقد التحقنا بالثورة يا عزيزي.

فسألته وقد انقبض صدري:

- وأين سادتكم؟

- سادتنا في عنبر القمح.

- في عنبر القمح؟

- نعم يا عزيزي! ولقد قيّدهم المسجّل بالحديد، وهو يزمع أن يذهب بهم إلى القيصر!

- رباه! إفتح هذا الحاجز أيها الأبله! هيّا إفتح. ماذا تنتظر؟

تردد الحارس، فقفزت من العربة، وضربته على أذنه، وأزحت الحاجز بنفسي، وهو يرسل إليّ نظرة مرتبكة بلهاء. ثم صعدت العربة وأمرت الحوذي بأن يمضي بي إلى سيد المنزل. إن عنبر القمح يقوم في وسط العرضة. ورأيت اثنين من الموجيك يحرسان مدخل البيت وقد تسلح كل منهما بدبوس. وقفت العربة أمام الباب، فقفزت منها إلى الأرض واتجهت إليهما رأساً. قلت آمراً:

- إفتحا الباب.

ربما كان منظري رهيباً مخيفاً. والمهم على كل حال أنهما فرّا مسرعين ورمى كل منهما دبوسه على الأرض. حاولت أن أُحطم القفل، وأن أقتحم الباب، إلا أن الباب كان مقيداً بالسلاسل لا سبيل

إلى قهره... وفي هذه اللحظة خرج من جناح الخدم شاب من الموجيك، وسألني بلهجة صلفة كيف جرؤت على فعل ما فعلت. فصرخت أقول.

- أين المسجّل أندروشكا؟ إئتني به.

- إنه أنا. وإسمي آندره آفاناسيفتش، لا أندروشكا. ماذا تريد؟

قال ذلك في زهو وكبرياء، وقد وضع يديه على خصره. ولكنني بدلاً من أن أجيب على سؤاله أمسكت به من ياقته، وجررته حتى وصلت إلى باب العنبر فأمرته أن يفتحه. أراد أن يحتج وأن يصرخ، ولكنني لطمته بضع لطمات هدّأت روعه، فأخرج من جيبه مفتاحاً، وفتح باب العنبر. هرعت إلى الداخل، وهناك، في ركن مظلم لا يدخل إليه النور إلا من ثقب صغير في السقف، رأيت أبويَّ. كانت أيديهما مقيدة، وكانت أرجلهما مقيدة. ارتميت عليهما دون أن أقول كلمة واحدة. وأخذا كلاهما يتفرسان فيَّ مندهشين. إن هذه السنين الثلاث التي قضيتها في الخدمة العسكرية قد بدّلت ملامحي حتى لم يعرفاني. وفجأة سمعت صوتاً ساحراً أعرفه يقول:

- أهذا أنت يا بترو أندرفتش؟

التفتّ فرأيت ماريا إيفانوفنا في ركن آخر مقيدة كذلك. صُعقت. وأخذ أبي ينظر إليّ صامتاً وهو لا يصدق عينيه. كان الفرح يضيء وجهه. ثم قال وهو يشدّني إلى صدره:

- لقد عدتَ يا بني؟ الحمد لله، الحمد لله!...

وأطلقت أُمي صرخة من صدرها ثم أجهشت في بكاء غزير. قالت:

- إبني، حبيبي. لقد شاء الله أن يأتي بك إلى هنا! ولكن كيف حالك؟

وسارعت فحللت وثاقهم بسيفي، لأخرجهم من هذا المكان. إلا أنني حين اقتربت من الباب وجدته مغلقاً من جديد.

فصحت حانقاً أنادي أندروشكا:

ـ أندروشكا. إفتح الباب.

فأجاب من الخارج يقول:

ـ لا. لا. ما عليك إلا أن تبقى هنا. سنعلمك كيف تخرج على القانون وتهين موظفي القيصر.

أخذت أفحص العنبر. لعلي أجد وسيلة تتيح لنا الهرب. فقال أبي:

ـ هذا عبث. لست من المالكين الذين يُدخلون إلى عنابرهم ثم يخرجون منها بممر خفي.

لقد سُرَّت أمي في أول الأمر لرؤيتي، ثم ما لبثت أن انحدرت إلى غمّ شديد إذ رأتني ألقى نفس المصير الذي يهدد الأسرة كلها. أما أنا فقد شعرت بالهدوء والطمأنينة منذ وجدتني إلى جانب أبويّ وإلى جانب ماريا إيفانوفنا. وكنت ما أزال أملك سيفي وأملك مسدسين، وهذا ما يتيح لي أن أواجه إذا اقتضى الأمر. وكان على زورين أن يصل في المساء، ولا بد أن يحررنا متى وصل. فأنبأت أهلي بذلك واستطعت أن أُهدىء من روع أمي ومن روع ماريا إيفانوفنا، فغمرها فرح رؤيتي مرةً أُخرى، وقضينا ساعات طويلة في مداعبات وأحاديث لا تنقطع. قال أبي:

ـ هيه، بترو. لقد فعلت الأفاعيل، وما أشدّ ما حنقت عليك! ولكننا لا نريد أن نتحدث الآن في أمور الماضي أرجو أن تكون قد شُفيت الآن من حماقاتك. إنني أعلم أنك قد قمت بواجبك العسكري على النحو الذي يليق بضابط شجاع، فشكراً لك، إن هذا

لمما يعزي رجلاً عجوزاً مثلي. وإذا تمت نجاتنا على يدك كان سروري بها مضاعفاً!...

قبّلت يد أبي وأنا أبكي، وألقيت نظرةً عجلى على ماريا إيفانوفنا، فكانت من شدة الفرح لحضوري بحيث كانت تبدو هادئة كل الهدوء سعيدة كل السعادة.

وفي نحو الظهيرة سمعنا صراخاً وضجة غير مألوفة. فسأل أبي:

ـ ما هذا؟ أيكون هو صاحبك العقيد قد وصل؟

فقلت:

ـ هذا غير ممكن. إنه لا يستطيع الوصول قبل المساء.

زادت الضجة، ودق ناقوس الخطر، وسمعنا وقع حوافر الخيل تجري في باحة المنزل عدواً. وفي هذه اللحظة رأينا رأس سافلتش الأشيب يطل من ثقب في جدار العنبر، وسمعته يقول في توجع:

ـ آندره بتروفتش، بنيَّ بترو أندرفتش، ماريا إيفانوفنا! لقد وصل اللصوص إلى القرية! وهل تعرف يا بترو أندرفتش من على رأسهم؟ إنه شفابرين، ألكسي إيفانتش، قاتله الله!

حين سمعت ماريا إيفانوفنا هذا الإسم الكريه ضمت يديها إحداهما إلى الأخرى وتسمّرت في مكانها وقد لاح في وجهها يأس رهيب. قلت:

ـ إسمع يا سافلتش! أرسل أحداً على حصان إلى ضفة النهر، يستقبل فرقة الفرسان، وينبيء العقيد بما نحن فيه من خطر.

ـ من عساي أُرسل يا سيدي؟ إن الأولاد جميعاً قد التحقوا بالثورة، والخيول صودرت كلها. آه. يا إلهي. ها قد وصلوا إلى الباحة. إنهم يقتربون من العنبر.

وفي هذه اللحظة سمعنا أَصواتاً وراء الباب، فأشرت إلى أُمي

وإلى ماريا إيفانوفنا أن يعتصما في ركن من الأركان، ثم استندت إلى الحائط بقرب الباب وسللت سيفي. وأخذ أبي المسدسين فسلّحهما، واصطف إلى جانبي. رُفع القفل وفُتح الباب، وظهر رأس المسجّل في المدخل، فما لبثت أن هويت عليه بضربة من سيفي فخرَّ على الأرض وسد بسقوطه مدخل العنبر. وفي هذه اللحظة أطلق أبي نار مسدسه في الباب، فإذا الحشد الذي كان يحاصرنا ينسحب إلى الوراء، فجررت الجريح إلى الداخل وأغلقت الباب. كان الجمع يعجّ بأناس مسلّحين عرفت بينهم شفابرين. قلت لأمي وماريا:

ـ لا تخافا شيئاً. الأمل كبير.

ثم التفتّ إلى أبي قائلاً:

ـ وأنت يا أبت لا تطلق نار مسدسك. لنوفّر ما تبقى لنا من ذخيرة.

كانت أمي تصلي وتبتهل إلى الله صامتة، وقد وقفت ماريا إيفانوفنا إلى جانبها تنتظر قرار القدر في هدوء ملائكي. وكانت تدوّي في الخارج أصوات التهديد والسباب والشتم. ظللت في مكاني مستعداً لأن أُمزق إرباً أول جَسور يمكن أن يظهر على الباب. وفجأة سكت المجرمون، وسمعت صوت شفابرين يناديني باسمي. فقلت:

ـ أنا هنا! ماذا تريد مني؟

ـ سلم نفسك يا جرنيف. إن المقاومة عبث لا طائل تحته. جنّب أبويك العجوزين شرَّ الموت. لن ينقذك العناد. سوف أنتصر عليك!

ـ ما عليك إذن إلا أن تحاول أيها الخائن.

ـ كلا، لن أُعرّض نفسي لشيء في غير فائدة، ولن أعرض حياة رجالي للخطر. يكفيني أن آمر بإشعال النار في العنبر، وسنرى عندئذ

ما أنت صانع يا دونكيشوت بيلوجوسكايا. سأمضي الآن أتناول طعام الغداء وما عليك بانتظار ذلك إلا أن تفكر في الأمر على مهلك إلى اللقاء. وأنت يا ماريا إيفانوفنا لن أعتذر إليك، فلعلك لن تملّي القعود في الظلام إلى جانب فارسك المغوار!...

وابتعد شفابرين بعد أن أمر بحراسة العنبر. لم نقل شيئاً. كان كل منا غارقاً في أفكاره دون أن يجرؤ على الإفضاء بها للآخرين. كنت أفكر فيما يستطيع إنسان كشفابرين أن يفعله إذا ثار ثائره! وإني لأعترف بأن القلق الذي ساورني على أبويّ كان ضئيلاً إذا قيس بالقلق الذي أحدثه في نفسي مصير ماريا إيفانوفنا. كنت أعلم أن الفلاحين والخدم يحبون أمي إلى درجة العبادة، وأن أبي يتمتع كذلك بمحبة الناس رغم قسوته، لأنه كان عادلاً وكان يعرف حاجات رعاياه الحقيقية. ولم تكن ثورتهم إذن بالخطيرة، وإنما هي زلة لا تعبر عن استياء ذي بال. فالأمل من هذه الناحية لم يزل زوالاً تاماً. ولكن، ولكن ما عسى أن يكون مصير ماريا إيفانوفنا بين يدي رجل فاجر لا ضمير له؟ لم أكن أجرؤ على التوقف عند هذه الفكرة الفظيعة، وكنت أتهيأ (اللهم عفوك ومغفرتك!) لأن أقتلها قبل أن أراها واقعة في قبضة عدوها.

انقضى على ذلك ما يقرب من ساعة. كانت أصوات غناء السكارى تصل إلى مسامعنا من القرية. وكان حرّاسنا يتمزقون حسداً فينتقمون لأنفسهم منا بأن يكيلوا لنا السباب، ويهددونا بالتعذيب والقتل. وأخيراً اضطربت باحة المنزل مرة أخرى اضطراباً كبيراً، وسمعنا شفابرين يقول:

ـ هيه! هل فكرتم؟ هل عزمتم على الاستسلام طائعين؟ لم يجبه أحد. فانتظر مدة من الوقت. ثم أمر بإحضار القش. وما هي إلا

لحظات حتى رأينا النار تشتعل في سجننا المظلم. وأخذ الدخان يتسرب من تحت الباب. عندئذ اقتربت ماريا إيفانوفنا مني وتناولت يدي في رقة ولطف وقالت:

ـ إسمع يا بترو أندرفتش. لا تهلك أبويك ولا تهلك نفسك بسببي دعني أخرج، فإن شفابرين يصغي إلى كلامي.

فصرخت في غضب شديد:

ـ مستحيل. أتدرين ما الذي ينتظرك؟

فأجابت في هدوء:

ـ لن أعيش بعد أن يُثلم شرفي، ولكن ربما استطعت أن أنقذ الشخص النبيل الذي حرّرني والأسرة الكريمة التي أحسنت وفادة يتيمة بائسة. وداعاً يا آندره بتروفتش، وداعاً يا أفدويتا فاسيليفنا! جزاكما الله خيراً عمّا أسلفتما من إحسان إليّ، باركاني وأنعما علي بالرضى. وداعاً أنت يا بترو أندرفتش... تأكد أنني... أنني.

هنا انفجرت في نحيب قوي وهي تخفي وجهها بيديها. وكنت كمن طار صوابه. وانفجرت أمي في بكاء غزير. قال أبي:

ـ كفى حماقة يا ماريا إيفانوفنا، من ذا الذي يدعك تذهبين وحدك إلى هؤلاء اللصوص؟ إبقي هنا وكفى ثرثرة. إذا كان لا بد من الموت فلنمت معاً! إسمعوا ماذا يقولون أيضاً في الخارج؟

سمعنا شفابرين يصيح:

ـ ألا تستسلمون؟ ألا ترون أنه لن تمضي خمس دقائق حتى تُشوى جسومكم شوياً؟

فأجابه أبي بصوت قوي حازم:

ـ لن نستسلم أيها الحقير!

لقد كان وجهه المغضّن يشرق بقوة هائلة وعزيمة جبارة، وكانت

عيناه تقدحان شرراً تحت حاجبيه الكثيفين. التفت نحوي وقال:

ـ آن الأوان.

ثم فتح الباب، فاندفعت النيران إلى الداخل وارتفعت ألسنة اللهيب حتى بلغت جسور السقف المسدودة شقوقها بأغصان يابسة. أطلق أبي نار مسدسه ثم جاوز العتبة المشتعلة بخطوة وهو يصيح بنا قائلاً: «إتبعوني». فأمسكت بيدي أمي وماريا وخرجت بهما بسرعة إلى الهواء الطلق. فرأيت شفابرين مجندلاً أمام العتبة قد صرعته يد أبي الضعيفة. وقد ذُعر جمهور اللصوص من خروجنا المفاجيء هذا فتفرقوا، إلا أنهم سرعان ما استردوا رباطة جأشهم وأخذوا يطوقوننا. واستطعت أن أضرب عدداً من الضربات القوية، إلا أن آجرة رمتها يدٌ حاذقة أصابتني في صدري، فسقطت مغشياً عليّ، وأحاط بي اللصوص فجردوني من سلاحي، فلما أفقت من إغمائي رأيت شفابرين راقداً على العشب دامياً، وقد أُجلستُ أمام أسرتنا يسندني بعضهم من الإبطين، واحتشد حولنا جمهور من الفلاحين والقوزاق والباشكير. كان شفابرين شديد الشحوب وقد وضع يده على جرحه. وكانت قسمات وجهه تعبر عن الألم والغضب. رفع رأسه في بطء، ونظر إليّ وجهاً لوجه، ثم قال بصوت مضطرب لا يُفهم:

ـ أشنقوه، أشنقوهم جميعاً... ما عداها.

فأحاط بنا الجمهور على الفور، وجرّونا نحو الباب الكبير. ولكنهم سرعان ما تركونا على حين فجأة، فقد ظهر زروين عند المدخل تتبعه كوكبة كبيرة من الفرسان قد أشهرت سيوفها. أخذ العصاة يتبعثرون في جميع الجهات، وأخذ الفرسان يطاردونهم فيطعنون من يطعنون ويأسرون من يأسرون. ونزل زورين عن حصانه، فحيّا أبويَّ ثم شدَّ على يدي بقوة. وقال:

ـ لقد وصلتُ في اللحظة المناسبة. . . هذه إذن خطيبتك.

فتضرج وجه ماريا إيفانوفنا بحمرة شديدة بلغت الأذنين، واقترب أبي من زورين وشكره بصوت هادئ على انفعال. وعانقته أمي وهي تناديه بقولها: «يا ملاكنا المنقذ».

سأل وهو يتفرس في وجه الجريح.

ـ من هذا؟

فأجاب أبي في شيء من الزهو:

ـ إنه رئيس العصابة. لقد أعان الله يدي الضعيفة على معاقبة هذا المسيء، فثأرت بذلك لإبني.

قلت لزورين:

ـ إنه شفابرين.

ـ شفابرين؟ إنه ليسرّني أن أراه. خذوه أيها الفرسان وقولوا للطبيب أن يُعنى به عنايته ببؤبؤ عينه. يجب حتماً أن يستطيع شفابرين المثول أمام لجنة قازان السرية. إنه أحد المجرمين الرئيسيين، ويمكن أن يكون لشهاداته شأن كبير.

فتح شفابرين عينيه المتوجعتين، وكانت قسمات وجهه لا تعبّر عن شيء غير الألم الجسمي، فأضجعه الفرسان على معطفه ومضوا به.

دخلنا غرف المنزل، فكنت أشعر بتأثر شديد وأنا أنظر حولي وأتذكر أيام طفولتي. لم يتبدل في البيت شيء، بل كان كل شيء في مكانه المعهود، ذلك أن شفابرين لم يسمح بنهب المنزل، فقد احتفظ في أعماق نذالته باشمئزاز غريزي من كل عمل من هذا النوع.

وظهر الخدم في الدهليز. إنهم لم يشاركوا في العصيان اطلاقاً، وقد فرحوا فرحاً صادقاً لاستردادنا حريتنا. وكان سافلتش يتهلل

طرباً. يجب أن أذكر أنه أثناء الفوضى التي سببها هجوم العصاة، هرع إلى الإسطبل الذي كان فيه حصان شفابرين، فأسرجه وأخرجه دون أن ينتبه إليه أحد، وانتهز فرصة الجلبة التي قامت في باحة المنزل، فمضى مسرعاً إلى ضفة النهر، فوجد هناك فرقة زورين تستريح إلى جانب الماء، فأنبأ زورين بالخطر الذي نحن فيه، فأصدر زورين أمره بأن تُسرج الخيل وأن يتجه الفرسان نحو قريتنا بأقصى سرعة ممكنة، وقد وصلوا، بحمد الله، قبل أن يفوت الأوان.

وعاد الفرسان من مطاردتهم وقد أسروا عدداً من اللصوص فأودعوهم ذلك العنبر عينه الذي صمدنا فيه للحصار التاريخي.

ثم افترقنا ليذهب كل منا إلى غرفته. لقد كان أبواي العجوزان في حاجة إلى الراحة. وارتميت أنا على سريري، وسرعان ما غططت في نوم عميق، لأنني لم يغمض لي جفن طوال الليلة البارحة. ومضى زورين يصدر أوامره.

وفي المساء تحلقنا في البهو حول «السماور» نتحدث فرحين عن الخطر الذي نجونا منه.

وسكبت لنا ماريا إيفانوفنا أقداح الشاي. وجلست إلى جانبها لا أهتم بشيء سواها. وبدا على أبويّ أنهما ينظران بعين الرضى إلى علاقة الحب التي بيننا. ما زالت ذكرى هذه السهرة منقوشة في نفسي إلى اليوم. لقد كنت سعيداً، بل كنت في ذروة السعادة. ما أندر مثل هذه اللحظات العذبة في حياتنا الشقية!. . .

وفي صباح اليوم التالي جاء بعضهم ينبىء أبي أن الفلاحين قد وفدوا إلى الباحة يعلنون التوبة ويطلبون العفو. فخرج أبي إليهم، فلما أبصروه جثوا على الأرض. قال أبي يخاطبهم:

- ما الذي حملكم على العصيان أيها الحمقى؟

فأجابوا جميعاً بصوت واحد:

- عفوك يا صاحب النبالة.

- كلام جميل... «عفوك يا صاحب النبالة»! ترتكبون الحماقات ثم تجيئون تطلبون العفو! على كل حال، من اعترف بذنبه فقد كفَّر عنه بعض التكفير. لقد عفوت عنكم، لأن الله منّ علي بعودة إبني بترو أندرفتش.

- لقد أخطأنا، لقد أخطأنا.

- الجو صاح جميل. وهذا أوان حصاد العشب، فماذا عملتم خلال هذه الأيّام الثلاثة أيها الأغبياء؟ يا ستاروست، أرسلهم جميعاً إلى المراعي، وحاول أيها الحيوان الأَشقر أن لا يأتي عيد القديس يوحنا إلا وقد تكدَّس العلف أكداساً. هيا امضوا في سبيلكم.

فانحنى الفلاحون يحيُّون، ثم مضوا إلى عملهم كأن شيئاً لم يحدث.

لم يكن جرح شفابرين خطيراً. وقد أُرسل مخفوراً إلى قازان. وكنت أطل من نافذة غرفتي حين رفعوه إلى العربة التي ستقله إلى قازان، فالتقت نظرتانا، فخفض هو رأسه، وغادرت أنا النافذة بسرعة، خشية أن أظهر بمظهر المنتصر على عدوي في حال بؤسه وذلّه.

وكان على زورين أن يتابع مهمته، فقررت أن أصحبه، رغم رغبتي الشديدة في قضاء بضعة أيام أُخرى في أحضان أسرتي. وقبل الرحيل بيوم ذهبت إلى أبويّ فانحنيت حتى لامست الأرض، على عادة أَهل ذلك الزمان، وطلبت إليهما الموافقة على زواجي بماريا

إيفانوفنا. فأنهضني أبواي العجوزان وأعلنا عن موافقتهما وهما يذرفان الدموع من شدة الفرح. فمضيت أجيئهما بماريا إيفانوفنا شاحبة مرتجفة، فباركا زواجنا. لن أستطيع أن أصف ما شعرت به في تلك اللحظة. من مرّ بمثل هذا الموقف يستطيع أن يفهمني دون أن ألحّ في الوصف، أما من لم يمرّ بمثل هذا الموقف فلا يسعني إلا أن أرثي لحاله، وإلا أن أنصحه، قبل أن يفوت الأوان، بأن يعشق ويطلب إلى أبويه مباركة زواجه.

وفي الغداة كانت، فرقتنا على أُهبة السير. فاستأذن زورين أسرتي بالرحيل، وكنا جميعاً على يقين من أن الأعمال الحربية ستنتهي في القريب، وكنت آمل أن أستطيع الزواج في غضون شهر. وقد عانقتني ماريا إيفانوفنا على مرأى من الجميع وهي تودعني. وصعدت العربة يتبعني سافلتش. وسار الركب وظللت مدة طويلة لا أستطيع أن أُحول نظري عن منزلنا الذي أتركه مرة ثانية. إن شعوراً بنذير الشؤم يجتاح نفسي؛ حتى لكأن صوتاً مجهولاً يهتف بي أن محنتي لم تنته بعد. كان قلبي يوجس خيفة من ملمات جديدة.

لن أصف هذه الحملة ولا نهاية حرب بوجاتشيف. وحسبي أن أذكر أننا مررنا بقرى نهبها رجال الغاصب نهباً فظيعاً، وكان لا مناص لنا من استلاب هؤلاء السكان البؤساء ما قد تركه لهم اللصوص. كانوا لا يعرفون من يطيعون ومن يعصون. لم يبق من سلطات في أي مكان. كان أصحاب الأملاك مختبئين في الغابات، وكانت عصابات اللصوص تجوب البلاد وترتكب الجرائم، وكان رؤساء القطعات الخاصة المكلفة بمطاردة بوجاتشيف الذي أخذ ينهزم متجهاً نحو أسترافان، كان هؤلاء الرؤساء يعملون وفقاً لما يمليه عليهم هواهم فيعاقبون المذنب والبريء على حد سواء. ورأينا منطقة

بكاملها قد شب فيها الحريق وأصبح أهلها في حالة فظيعة من التشرد والجوع. ألا وقانا الله شهود ثورة شعبية روسية، ثورة مجنونة لا ترحم!... إن أولئك الذين يفكرون في تهيئة ثورات في بلادنا، إما إنهم شبان لا يتبصرون بعواقب الأمور، وإما أنهم أُناس لا يعرفون طبيعة شعبهم، وإما أنهم رجال قساة القلوب لا يقيمون وزناً لحياتهم ولا لحياة غيرهم من الناس.

لقد فرَّ بوجاتشيف يطارده إيفان إيفانوفتش مكلسون. ثم ما لبثنا أن بلغتنا أنباء هزيمته الحاسمة. وقد تلقى زورين أخيراً نبأ أسر هذا المحتال، وتلقى في الوقت نفسه أمراً بوقف تقدمه.

لقد انتهت الحرب وأصبح في وسعي أن أعود إلى أهلي. اشتعل قلبي حماسة حين تصورت أنني أستطيع أن أُعانق أبوي بعد قليل، وأن أرى ماريا إيفانوفنا التي لم يبلغني عنها أي نبأ. كنت أقفز كالطفل الصغير من شدة الفرح، وكان زورين يضحك، ويهزّ كتفيه قائلاً: «لا لا، العاقبة وخيمة. إنك بالزواج تضيّع نفسك في غير طائل».

على أن شعوراً غريباً كان يعكّر عليّ فرحي. كنت على الرغم مني أفكر في ذلك اللص. في الدماء البريئة التي سفكها، في العذاب الذي ينتظره. وكان ذلك يقلقني.

كنت أُخاطبه في سري آسفاً: «آه منك يا إمليان... لماذا لم تُصبك طعنة من رمح، لماذا لم تُصبك رصاصة من مسدس؟ ليت شيئاً من هذا قد وقع لك، إذن لمت ميتةً حسنة».

ماذا تريدون؟ كنت لا أستطيع أن أفكر فيه دون أن أتذكر أنه عفا عني في أحرج لحظة من لحظات حياتي، وأنه أنقذ خطيبتي من براثن شفابرين اللئيم الكريه.

وأذن لي زورين بالرحيل. وكنت أتهيأ للسفر بعد بضعة أيام، لألقى أهلي وأرى ماريا إيفانوفنا... لولا أن صاعقة لم تكن في الحسبان وقعت على رأسي.

ففي اليوم المعيَّن للرحيل، في اللحظة التي كنت أهم فيها أن آخذ وجهتي إلى قريتنا، دخل عليَّ زورين، وقد أمسك بيده ورقة، وظهرت على وجهه علائم غم عميق شعرت بقلبي ينقبض له فجأة، شعرت بخوف لا أعلم أنا نفسي سبباً له. وصرف زورين خادمي، وقال إنه يريد أن يكلمني في أمر من الأمور. فسألته قلقاً:

ـ ماذا هنالك؟

فقال وهو يمدّ إليّ الورقة:

ـ شيء مزعج. أنظر ماذا تلقيت منذ هنيهة!

فتصفحت الورقة، فإذا هي أمر سرّي موجه إلى جميع رؤساء القطعات الخاصة بأن يقبضوا عليَّ حيث يجدونني وأن يسوقوني على الفور مخفوراً إلى «لجنة التحقيق» بقازان، وهي اللجنة المكلفة بالتحقيق في قضية بوجاتشيف.

كادت الورقة تسقط من يدي. قال زورين:

ـ يؤسفني أنني مضطر إلى تنفيذ الأمر. لعل السلطات قد ترامت إليها أنباء أسفارك الودية مع بوجاتشيف أرجو أن لا يجر هذا ذيولاً سيئة، وأن تستطيع تبرير عملك أمام اللجنة. لا تفقد شجاعتك، وسافر من فورك.

كنت مرتاح الضمير، لا أخشى أن أُدان، وإنما كان يزعجني أن لحظة اللقاء الجميل قد تتأخر بضعة أشهر. وأُعدّت العربة وأبدى زورين كثيراً من المودة والصداقة، وتمنى لي حظاً سعيداً. صعدت العربة، وجلس عن يميني جندي وعن شمالي جندي آخر، وقد شهر كل منهما سيفه وسارت بنا العربة في الطريق الكبير.

الفصل الرابع عشر

التضحية

إشاعات الناس كضجة البحر

«مثل»

كنت على يقين من أن سفري من أورنبورغ دون استئذان هو أساس هذه القضية كلها. وكان في وسعي أن أبرّر سفري هذا بلا كبير عناء. فإن الخروج من أورنبورغ لم يكن مباحاً فحسب، بل كان محبذاً أيضاً، وإذا كان لا بد من الإتهام فيجب أن أُتهم بشدة الحماسة والإخلاص والتفاني لا بالعصيان والخروج على إرادة السلطة. غير أن عدداً من القرائن يمكن أن يأتي مؤيداً لوجود علاقات ودية بيني وبين بوجاتشيف، ويمكن أن تبدو هذه العلاقات مشبوهة على أقل تقدير. هكذا ظللت طوال الوقت الذي استغرقته الرحلة أفكر في الاستجواب الذي ينتظرني، وأفكر في الأجوبة التي يجب عليّ أن أسوقها، وقررت أن أطلع المحكمة على الحقيقة كلها، لأنني رأيت أن هذا التبرير أَبسط أنواع التبرير وأسلمها عاقبة.

ووصلت إلى قازان كانت المدينة مخربة قد أتت عليها الحرائق، فما ترى في مكان البيوت إلا ركاماً متحرقاً، وجدراناً لا أبواب فيها

ولا نوافذ. تلك كانت آثار مرور بوجاتشيف. وقادوني إلى القلعة التي ما زالت قائمةً في وسط الخرائب لم يمسسها أذى. ووضعني الجنود بين يدي الضابط المناوب. فاستدعى حداداً وضع القيد في رجليّ وأحكم إقفاله بقوة. ثم قادوني إلى السجن، وتركوني وحيداً في حجرة مظلمة ضيقة عارية الجدران، ليس لها إلا نافذة صغيرة ذات قضبان حديدية. إن بداية كهذه لا تبشّر بخير. غير أنني لم أفقد الشجاعة ولا الرجاء. فكنت أعزي نفسي بما يعزّي به جميع المحزونين أنفسهم. وبعد أن ذقت للمرة الأولى حلاوة الصلاة تخرج من قلب طاهر وإن يكن ممزقاً، نمت نوماً هادئاً دون أن أشغل بالي بما ينتظرني.

وأيقظني الحارس مبكراً في اليوم التالي، وأعلمني أن اللجنة تريد أن تراني. وجاء جنديان فاجتازا بي الباحة، ثم ذهبنا إلى منزل الآمر، حتى إذا وصلنا إلى الدهليز تركاني أدخل الحجرات وحدي.

دخلت في بهو كبير. فرأيت رجلين قد جلسا إلى منضدة مفروشة بأوراق كثيرة أحدهما لواء (جنرال) قاسي النظرة مكفهر الوجه، ورئيس شاب من الحرس في نحو الثلاثين من عمره، لطيف المظهر منطلق الحركة وإلى جانب النافذة جلس أحد الكتاب إلى منضدة خاصة، وقد وضع ريشة وراء أذنه، ومال على صفحة من الورق متهيئاً لتسجيل أقوالي. وبدأ الاستجواب فسئلت عن إسمي وعن صفتي، ثم سألني القائد ألستُ ابنَ أندره بتروفتش جرنيف، فلما أجبته بنعم، قال بصوت قاس:

ـ إنه لمن المؤلم حقاً أن يكون لرجل محترم كأبيك ابنٌ مُشين مثلك.

فأجبت في هدوء بأنني آمل أن أبدد جميع الوشايات التي ترامت

إليهم عني، كائنةً ما كانت، وذلك بتقرير الأمور على حقيقتها في صراحة وصدق.

فقال بنبرة جافّة ووجه جامد:

ـ أنت يا صاحبي شاطر، ولكننا رأينا كثيراً من الشاطرين أمثالك.

عندئذ سألني الضابط عن الظروف التي التحقت فيها بعصابة بوجاتشيف وعن المهمات التي عهد بها إليّ بوجاتشيف هذا.

فأجبت مستاءً بأنني نبيل وضابط، وأنني بصفتي هذه لا يمكن أن أدخل في خدمة بوجاتشيف ولا أن أُقبل أن يكل إليّ أية مهمة.

فتابع السائل يقول:

ـ فكيف أمكن إذن أن لا ينجو من اللص إلا حضرة النبيل الضابط، بينما شُنق جميع رفاقه على أشنع صورة؟ وكيف أَمكن أن يمضي هذا النبيل الضابط عينه إلى وليمة مع اللصوص يؤاكلهم ويشاركهم كأنه صديق حميم؟ وكيف أمكن أن يقبل من المجرم الأول عدداً من الهدايا! معطفاً وحصاناً وكيساً من المال؟ من أين جاءت هذه الصداقة وعلى أي أساس يمكن أن تقوم إن لم تقم على أساس الخيانة، أو على أساس جبانة خائرة مجرمة على أقل تقدير.

لقد أهانتني كلمات ضابط الحرس إهانة عميقة، فبدأت الدفاع عن نفسي في حرارة، فقصصت كيف عرفت بوجاتشيف في الفلاة إبان العاصفة، وكيف أنه تعرفني يوم الاستيلاء على بيلوجورسكايا، فلم يأمر بشنقي. واعترفت بأنني قبلت المعطف والحصان، ولكنني ذكرت أنني دافعت عن الحصن ضدَّ جيوش اللص إلى آخر لحظة، ثم أشهدت القائد اللواء الذي كنت في أمرته على سلوكي أيام حصار أورنبورغ، ذلك الحصار الأليم.

عندئذ تناول العجوز القاسي من على المنضدة رسالة مفضوضة

وأخذ يقرأ جهاراً:

«جواباً على كتاب سعادتكم بصدد الضابط حامل العلم جرينيف، المتهم بالاشتراك في الاضطرابات القائمة وبوجود علاقات بينه وبين اللص، علاقاتٍ لم تسمح بها القيادة ولا تتفق مع اليمين الذي حلفه، يشرفني أن أنهي إليكم ما يلي: إن الضابط جرينيف المذكور كان في الخدمة بأورنبورغ من أول تشرين الأول (أكتوبر) إلى اليوم الرابع والعشرين من شباط (فبراير) من هذه السنة، وفي هذا التاريخ ترك المدينة ولم يظهر بعد ذلك في القطعات التابعة لقيادتي. وقد علمت من بعض الفارّين إلى معسكر العدو أنهم رأوه في مركز بوجاتشيف وأن هذا صحبه إلى حصن بيلوجورسكايا الذي كان يعمل فيه. أما عن سلوكه، فإنني أستطيع...».

وهنا انقطع عن القراءة وقال لي بصوت خشن:

ـ والآن ماذا تقول؟

كنت أكاد أكمل روايتي وأسرد تاريخ علاقتي بماريا إيفانوفنا، في مثل صراحتي حين رويت ما عدا ذلك، لولا أنني شعرت على حين غرة بنفور من ذلك كبير لا سبيل إلى مقاومته. لقد خطر على بالي أنني إذا أسميت الآنسة ميرونوف، فلا بد للجنة عندئذ من أن تستدعيها، فلما تصورت إسمها مقحماً في وشايات سافلة، وتصورتهم يستدعونها لمواجهة أقوالها بأقوالي، اضطربت اضطراباً شديداً حتى صرت أتردد في كلامي وأتلعثم.

فلما لاحظ القضاة اضطرابي كان لا بد أن يغيّروا رأيهم فيّ بعد أن كانوا يصغون إلى كلامي في شيء من اللطف وحسن الظن، فأصدر اللواء أمره بإحضار «مجرم الأمس»، فالتفتُ نحو الباب في حركة عنيفة وأنا أتحرق شوقاً إلى رؤية ذلك الذي وشى بي. وما هي

إلا لحظات حتى سمعت رنين السلاسل، وفُتح الباب، فإذا بي أمام شفابرين. شُدهت للتغير الذي طرأ عليه. لقد كان شاحباً شحوباً هائلاً، وكان شعره الذي عهدته منذ زمن قليل في سواد الفحم، كان أبيض تامّ البياض، وقد تهدلت لحيته طويلة كثة. كرَّر شفابرين اتهاماته بصوت ضعيف، ولكن بلهجة قاطعة. فزعم أن بوجاتشيف أرسلني إلى أورنبورغ جاسوساً، وأنني كنت أخرج من وراء الأسوار في كل يوم أبادل رجال بوجاتشيف بضع طلقات وهمية من الرصاص، وأسلمهم تقارير مكتوبة عن كل ما يجري في داخل المدينة، ثم التحقت علانية بمعسكر الغاصب وصحبته في إحدى جولاته من حصن إلى آخر، وأنني كنت أحاول أن أسفّه الخونة الآخرين، رفاقي، رجاة أن أحتل مراكزهم وأن أستفيد مما يوزعه بوجاتشيف من مكافآت.

أصغيت إلى كلام شفابرين صامتاً. وسرّني من كلامه شيء واحد: هو أنه لم يأت على اسم ماريا إيفانوفنا بذكر. تُرى ألأن كرامته يجرحها تذكُّر هذه الفتاة التي احتقرت حبه، أم لأن قلبه ما زال يحتفظ بشيء مما حملني أنا على السكوت؟ المهم على كل حال أن اسم ابنة آمر موقع بيلوجورسكايا لم يُذكر أمام لجنة التحقيق. وهذا كله جعلني أُصرّ على ما عزمت عليه، حتى إذا سألني القضاة هل ثمة ما أقوله في الرد على أقوال شفابرين أجبت بأنني أُصر على أقوالي الأولى، وبأنني لا أستطيع أن أفضي بشيء آخر. فأمر اللواء بإخراجنا من البهو، فخرجنا معاً، ونظرت إلى شفابرين في هدوء، دون أن أُوجه إليه كلمةً واحدة، فابتسم ابتسامة خبيثة، ثم رفع السلاسل التي تقيد رجليه، وأسرع الخطو يتقدمني في الخروج، وأعادني الجنود إلى سجني، ثم لم أُستجوب بعد تلك اللحظة أبداً.

وما سأقصّه بعد الآن لم أشهده بنفسي، وإنما رُوي لي مرات كثيرة، حتى نُقشت تفاصيله جميعها في ذاكرتي، حتى ليتراءى لي في بعض الأحيان أنني شهدته بنفسي.

احتفى أبواي بماريا إيفانوفنا حفاوةً عظيمة هي مما يتميز به أُناس الزمان القديم، ورأيا في إيوائهما يتيمة بائسةً وفي إحسان معاملتها بركة إلهية هبطت عليهما من السماء، ثم ما لبثا أن شعرا نحوها بحب صادق، ذلك أنه يستحيل أن يعرفها امرؤ دون أن يحبها. وأصبح أبي لا يرى في عاطفتي نحوها نزوة من نزوات الشباب. أما أُمي فقد أصبحت لا تفكر إلا في شيء واحد، هو أن ترى ولدها بتروشا يتزوج هذه الفتاة الفاتنة، ابنة الضابط الرئيس.

وقد صُعقت الأسرة حين بلغها نبأ اعتقالي. وكانت ماريا إيفانوفنا قد روت لأبويّ قصة علاقتي الغريبة ببوجاتشيف، روتها تفصيلاً في بساطة تامة، حتى أن أبويَّ لم يساورهما من ذلك أي قلق، بل كانت القصة كلها موضع تندّر وضحك. كان أبي لا يستطيع أن يصدق أن من الممكن أن أُشارك في هذه الثورة الحقيرة التي لم يكن لها من غاية إلا قلب العرش والقضاء على النبلاء، وأخذ يسأل سافلتش ويلحّ في السؤال، فلم يخف عنه سافلتش أن سيده الشاب قد زار إميليان بوجاتشيف، وأن هذا اللص كان يحبني فيما يظهر، إلا أنه حلف أغلظ الأيمان أن المسألة ليست مسألة خيانة البتة، فهدأ روع أبويَّ، وأخذا ينتظران الأنباء المطمئنة بفارغ صبر. أما ماريا إيفانوفنا فكانت في حالة فظيعة من القلق. إلا أنها كانت صامتة لا تتكلم، لأنها متواضعة متحفظة إلى أبعد حدود التواضع والتحفظ.

انقضت بضعة أسابيع على هذا النحو. وفجأة تلقى أبي في ذات يوم رسالة من سان بطرسبرج بعث بها إليه قريبنا الأمير ب. . . وفيها

يقول إن شبهات اشتراكي في خطط العصاة قد ثبتت ثبوتاً قاطعاً مع الأسف، وأن العقوبة القصوى كان ينبغي أن تكون من نصيبي، لولا أن «الإمبراطورة»، احتراماً لمآثر الأب وسنّه، قررت أن تنعم على الإبن المجرم فأبدلت الإعدام العلني المشين بنفي مؤبد إلى أقاصي سيبيريا».

كادت هذه الصدمة المفاجئة أن تقتل أبي، فإذا هو يفقد رباطة جأشه، وإذا الحزن الذي يحتمله عادةً في صمت، يظهر الآن في أقوال مرّة، فكان لاينى يكرر: «كيف؟ إبني يشارك في أعمال بوجاتشيف! اللهم رحمتك! أتصل بي الأمور إلى هذا الحد؟ والإمبراطورة تخفف عقوبة الإعدام! ولكن هل يخفف هذا من كربي! ليس موته هو الذي يزعجني! لقد مات جدي الأكبر على المقصلة وهو يدافع عما كان يعتقده أمراً مقدساً، وعُذب أبي مع فولنسكي وفروستوف. أما أن يحنث نبيل من النبلاء بيمينه، فينضمَّ إلى لصوص، إلى قتلة، إلى عبيد هاربين، فذلك عار يلطخ أسرتنا كلها...».

ذُعرت أمي من هذا اليأس الذي سيطر على أبي، فأصبحت لا تجرؤ على أن تبكي أمامه. وحاولت أن ترد إليه أمله، فأخذت تحدثه عن كذب الإشاعات، وعن تقلقل آراء الناس. وكانت ماريا إيفانوفنا تتألم أكثر من الجميع، لأنها واثقة من أنني أستطيع أن أُبرز عملي، فحزرت سبب صمي، واتهمت نفسها بأنها هي السبب في هذا البلاء. كانت تخفي دموعها وآلامها عن الجميع، دون أن تكف عن التفكير في وسائل إنقاذي.

وفي ذات مساء، كان أبي جالساً على الديوان يقلب جريدة البلاط، دون أن تحدث فيه ما تحدثه عادةً من أثر، وذلك لأن فكره

الآن مسترسل في أمور أخرى وكان يصفر لحناً عسكرياً قديماً. وكانت أمي تحيك قميصاً من الصوف وهي صامتة تنحدر دموعها على القميص من حين إلى حين. وكانت ماريا إيفانوفنا معهما منكبّة على الخياطة، فإذا هي تعلن لهما على حين غرة أنها مضطرة إلى السفر إلى سان بطرسبرج، وتطلب إليهما أن يعطياها ما هي في حاجة إليه من مال. حزنت أُمي لذلك حزناً شديداً. وقالت:

ـ مالك ولسان بطرسبرج؟ أتريدين أن تتركينا أنت أيضاً؟

فأجابت ماريا إيفانوفنا بأن مستقبلها متوقف على هذه السفرة، وأنها ذاهبة إلى العظماء تطلب حمايتهم ومعونتهم، بصفتها ابنة ضابط قضى نحبه في سبيل واجبه.

خفض أبي رأسه. لقد كان يؤلمه كل كلام يذكّر بجريمة ابنه الوهمية، حتى لكأنه يرى في مثل هذا الكلام لوماً وتقريعاً.

قال وهو يطلق من صدره زفرة حرّى:

ـ إمضي إلى شأنك يا ابنتي، إننا لا نريد أن نحول بينك وبين السعادة. أسأل الله أن يقيّض لك زوجاً لم تدنّسه الخيانة.

ثم نهض وترك الغرفة.

فلما أصبحت وحيدة مع أمي، أفضت إليها ببعض ما عقدت النية عليه فتهلل وجه أمي، وعانقت ماريا في حرارة، وابتهلت إلى الله أن يبارك جهود كنتها المقبلة. ثم أُعدت لها عدة السفر، وما هي إلا بضعة أيام حتى رحلت تصحبها خادمتها الأمينة بالاشا، ويصحبها كذلك سافلتش. إن هذا العجوز الذي فرّقت بيني وبينه ظروف قاهرة، كان يعزّيه أن يتصوّر أنه يخدم الفتاة التي ستكون زوجتي في المستقبل.

وصلت ماريا إيفانوفنا إلى صوفيا دون أن تعترضها صعوبات، فلما

علمت أن البلاط يقيم في تلك الآونة في مدينة سلو[1]، قررت أن تتوقف في هذه المدينة. وأقامت لدى زوجة مدير البريد، وسرعان ما أنبأتها هذه أنها ابنة أخ الوقّاد في القصر، ثم أطلعتها على جميع أسرار القصر، فذكرت لها في أية ساعة تنهض الإمبراطورة من نومها، وفي أية ساعة تحتسي قهوتها، وفي أية ساعة تقوم بنزهتها، وذكرت لها أسماء العظماء الذي يحيطون الآن بالإمبراطورة، بل حدثتها عما قالته الإمبراطورة أمس على مائدة الطعام، وسمَّت الشخص الذي استقبلته في المساء الخ. إن هذا الحديث الذي أرسلته آنا فاسيليفنا يساوي صفحات من التاريخ يمكن أن يستفيد منها المؤرخون في المستقبل. وقد أصغت ماريا إيفانوفنا إلى هذا الحديث في انتباه شديد. ثم قامتا إلى الحديقة تتنزهان فيها، فقصَّت آنا فاسيليفنا تاريخ كل ممر وكل جسر، وبعد أن تنزهتا ما شاء لهما التنزه، عادتا إلى البيت وقد سُرَّت كل منهما بالأخرى أيما سرور.

وفي الغداة استيقظت ماريا إيفانوفنا من نومها مبكرة، فارتدت ثيابها في رفق، ومضت إلى الحديقة. كان الصباح جميلاً: فالشمس تلقي أشعتها على ذرى أشجار الزيزفون التي تبدّل لونها بفعل نسيم الخريف، والبحيرة تتمتع تحت أشعة الشمس ببريق جميل، والأوز يستيقظ فيخرج مزهوّاً من الأدغال التي تحف بشواطيء البحيرة. وأخذت ماريا إيفانوفنا تطوف في مرج جميل أقيم في وسطه نصب تذكاري تخليداً لذكرى الانتصارات الرائعة التي حققها الكونت بترو ألكسندروفتش رومیانتزیف منذ مدة يسيرة. وإنها لكذلك فإذا هي

(1) مقر إمبراطوري يقع على بعد اثنين وعشرين فرسخاً من سان بطرسبرج، وصوفيا إحدى ضواحيه.

ترى كلباً صغيراً أبيض، من عرق إنجليزي، يعدو نحوها وهو يعوي، فأخذها خوف فوقفت في مكانها لا تتحرك، فإذا هي تسمع صوتاً نسوياً جميلاً يقول:

- لا تخافي. إنه لا يعضّ.

فالتفتت ماريا فإذا هي ترى سيدة جالسة على مقعد أمام التمثال. فجاءت إليها وجلست على الطرف الآخر من المقعد. كانت هذه السيدة لا تنقطع عن التفرّس فيها، وكانت ماريا إيفانوفنا تلقي على السيدة نظرات خجلى من حين إلى حين، فاستطاعت بهذه النظرات أن تفحصها من أخمص القدم إلى قمة الرأس. كانت السيدة ترتدي ثوباً أبيض من ثياب الصباح، ومعطفاً من فراء، وقبعة من قبعات المساء. وكانت تبدو في الأربعين من عمرها، موردة الوجنتين، على وجهها سيماء الهدوء والوقار، وفي عينيها الزورقاويين وابتسامتها الرقيقة سحر لا يقاوم. وأخيراً قطعت السيدة حبل الصمت، قالت:

- لا شك أنك غريبة عن البلدة.

- نعم يا سيدتي. لقد وصلتُ أمس من الأقاليم.

- وهل وصلت مع ذويك؟

- لا يا سيدتي فأنا وحيدة.

- وحيدة؟ ولكنك ما زلت في ريعان الصبا!

- ليس لي أب ولا أم. . .

- لا شك أنك أتيت لشأن من الشؤون.

- نعم يا سيدتي، أتيت ألتمس أمراً من الإمبراطورة.

- إنك يتيمة. فلعلك جئت ترفعين شكوى من ظلامة وقعت عليك.

- لا يا سيدتي. ما جئت أطلب حقاً، وإنما جئت ألتمس عفواً.

ـ هل لي أن أسألك من أنت؟

ـ أنا ابنة الضابط الرئيس ميرونوف؟

ـ الرئيس ميرونوف؟ ذلك الذي كان آمر أحد حصون أورنبورغ؟

ـ نعم يا سيدتي.

ظهر التأثر على السيدة. فقالت وقد زادت لهجتها رقة وعطفاً:

ـ أستميحك عذراً إذا أنا تدخلت في شؤونك الخاصة. ولكنني ممن يُستقبلون في بلاط الإمبراطورة، فأرجو أن تشرحي لي طلبك، عسى أن أَفيدك في شيء.

فنهضت ماريا إيفانوفنا من مكانها وانحنت تشكر السيدة في احترام. إن كل شيء في هذه السيدة المجهولة يجذب القلب ويوحي بالثقة. استلّت ماريا إيفانوفنا من جيبها ورقة مطوية، ومدَّتها إلى هذه الإنسانة التي تولت حمايتها على غير انتظار. وأخذت السيدة تقرأ الورقة بينها وبين نفسها.

كانت في أول الأمر تقرأ في انتباه جميل كريم. إلا أن قسماتها قست فجأة، وكانت ماريا إيفانوفنا تتابع بنظرها أيسر حركة من حركاتها، فخافت من هذا التغير الذي طرأ على وجهها. بعد أن كان منذ دقيقة هادئاً كل الهدوء جميلاً كل الجمال.

قالت السيدة في لهجة جافة:

ـ تطلبين العفو عن جرينيف؟ إن الإمبراطورة لا تستطيع أن تبرىء هذا الجاني إنه لم يلتحق بالثورة عن جهل أو طيش، وإنما هو شقي خطر لا يعرف الإيمان ولا يرعى حرمة القانون!

فصرخت ماريا إيفانوفنا:

ـ ليس هذا صحيحاً.

فهتفت السيدة وقد تضرج وجهها بحمرة شديدة على حين فجأة:

ـ كيف لا يكون هذا صحيحاً؟

ـ أُقسم لك أنه غير صحيح. إنني أعرف كل شيء، سأقصّ عليك كل شيء. من أجلي أنا وحدي إنما عرّض نفسه لكل ما وقع له. ولئن لم يشأ أن يدافع عن نفسه أمام المحكمة، فذلك حتى لا يقحمني في هذه القضية.

ثم أخذت تقصّ عليها في حرارة كل ما قصصناه عليك أيها القارئ. فأصغت إليها السيدة في انتباه، ثم سألتها عن المكان الذي تقيم فيه الآن، فلما سمعت اسم آنا فاسيليفنا قالت وهي تبتسم:

ـ ها. نعم. عرفت. وداعاً. لا تتحدثي إلى أحدٍ عن لقائنا. آمل أن لا تضطري إلى انتظار الجواب مدة طويلة.

ثم نهضت ومضت إلى سبيلها، وعادت ماريا إيفانوفنا إلى مسكن آنا فاسيليفنا وقلبها يفيض فرحاً ورجاءً.

لامتها آنا على نزهتها الصباحية لأن هذه النزهة قد تضرّ بصحتها. ثم أتت بسماور الشاي، وفيما هي تنطلق في حكاياتها عن القصر، هذه الحكايات التي لا ينضب لها معين، إذا بعربة تدخل الباحة، وتتوقف أمام الباب، فينزل منها خادم من خدم القصر، ويعلن أن صاحبة الجلالة تدعو إليها الآنسة ميرونوف.

فانفعلت آنا فاسيليفنا من ذلك أشد الانفعال، وأخذت تتحرك في اضطراب، وهتفت تخاطب ماريا:

ـ يا إلهي! إن صاحبة الجلالة تدعوك إلى لقائها. كيف عرفتْ أنك هنا! ثم كيف تستطيعين أن تمثلي بين يديها يا بنيتي؟ أعتقد أنك لا تجيدين التقدم إليها عن النحو اللائق. ليتني أستطيع الذهاب معك، إذن لأسديت إليك بعض الإرشادات. ثم كيف تذهبين إليها وأنت في ثياب السفر هذه؟ ليتني أرسل أحداً إلى القابلة أسألها أن

تعيرك ثوبها الأصفر!

فقال الخادم إن مشيئة صاحبة الجلالة أن تحضر إليها ماريا إيفانوفنا وحدها كيف كانت، فلم يبق ثمة مجال للأخذ والرد، فصعدت ماريا إيفانوفنا العربة، ومضت إلى القصر تصحبها نصائح آنا فاسيليفنا ودعواتها.

شعرت ماريا إيفانوفنا أن مصيرنا رهن بهذه المقابلة، فكان قلبها يخفق تارة، وينقبض من الخوف تارة أخرى وما هي إلا بضع دقائق حتى توقفت العربة أمام القصر. وأخذت ماريا إيفانوفنا تصعد الدرج وهي ترتعد. وكانت الأبواب تنفتح أمامها على مصراعيها.

اجتازت سلسلة كبيرة من الحجرات الفخمة لم تر فيها أحداً، وكان الوصيف يرشدها إلى الطريق، فاقترب أخيراً من باب مغلق وقال إنه داخل يؤذن بقدومها، وتركها تنتظر.

كانت من شدة الخوف، وهي تتصور أنها ستلقى الإمبراطورة وجهاً لوجه، بحيث لا تكاد تقوى على الوقوف على قدميها. وما هي إلا لحظة حتى فُتح الباب ودخلت ماريا إيفانوفنا حجرة زينة الإمبراطورة.

كانت الإمبراطورة جالسة أمام مرآة وقد حفّ بها عدد من الوصيفات، فلما أقبلت ماريا تباعد الجميع في كثير من الاحترام يفسحون لها طريق المرور إلى الإمبراطورة.

والتفتت الإمبراطورة بوجهها الذي يفيض كرماً ونبلاً، فإذا ماريا ترى نفسها أمام تلك السيدة التي أفضت إليها بقصتها منذ قليل في كثير من الصراحة. نادتها الإمبراطورة إليها وقالت لها في ابتسامة:

ـ يسرني أن أحقق ما قطعت لك من عهد، وأن أنظر إلى طلبك بين الاعتبار. لقد انتهت قضيتك، واقتنعت ببراءة خطيبك. وهذه

رسالة مني أرجو أن تحمليها إلى حميّك بيدك.

فتناولت ماريا إيفانوفنا الرسالة بيد مرتجفة وأخذت تبكي، وارتمت على قدمي الإمبراطورة، فأنهضتها الإمبراطورة وقبّلتها. ثم قالت لها:

ـ أعلم أنك لست بالغنية. إلا أن لإبنة الرئيس ميرونوف علينا حقوقاً. لا يقلقنك المستقبل، فسأتولى تقديم ما يوفر لك حياة رخيّة.

وبعد أن غمرتها بمداعباتها أذنت لها بالإنصراف. فعادت إلى مسكن آنا فاسيليفنا بوابل من الأسئلة كانت تجيب عليها ماريا كيفما اتفق ورغم أن آنا فاسيليفنا استاءت من ضعف ذاكرة الصبية، فإنها غفرت لها ذلك في كثير من الكرم والسخاء إذ عزته إلى الخجل الذي تتصف به بنات الأقاليم. وعادت ماريا إيفانوفنا إلى الريف في ذلك اليوم نفسه، دون أن تغريها زيارة سان بطرسبرج.

* * *

هنا تنتهي مذكرات بترو أندرفتش جرينيف. وقد علمنا مما تتناقله الأسرة أباً عن جد من أحاديث أن بترو أندرفتش قد أُطلق سراحه بأمر إمبراطوري في أواخر عام 1774، وأنه شهد إعدام بوجاتشيف، وأن بوجاتشيف هذا قد رآه في الحشد فعرفه؛ فحيّاه بهزّة من رأسه، وأن هذه الرأس نفسها عُرضت على الشعب بعد لحظة مضرجةً بدمها. وقد تزوج بترو أندرفتش بماريا إيفانوفنا بعد ذلك بقليل، وها هي ذريتهما تزدهر الآن بمقاطعة سمبرسك.

* * *

على بعد ثلاثين فرسخاً من بلدة س... تقوم قرية يملكها عشرة أشخاص. وفي أحد بيوت هذه القرية يدخل الداخل فتطالعه في

صدر إِحدى قاعاتها رسالة موضوعة في إِطار، هي الرسالة التي كتبتها كاترين الثانية بخط يدها، وبعثت بها إِلى والد بترو أندرفتش، تبرئ إبنه مما نسب إليه، وتطري في إبنة الضابط ميرونوف نبل قلبها وحسن ذكائها.

إِن أحد أحفاد بترو أندرفتش هو الذي قدم إِلينا مخطوطة هذه المذكرات التي كتبها جده، حين علم أننا نهتمّ بتاريخ هذه الفترة. فقررنا أن ننشر المخطوطة مستقلة بعد أن استأذنا في ذلك أصحاب الشأن، ولم نزد عليها إلا بضعة أبيات من الشعر تناسب المقام، صدّرنا بها مطالع الفصول، كما أخذنا على عاتقنا تبديل بعض أسماء الأعلام.

(1833 ـ 1836)

ناشر المخطوطة

ألكسندر بوشكين

الفهرس



سَامي الدروني

- أديب وناقد ومترجم ودبلوماسي سوري.
- ولد عام 1921 بمدينة حمص (الجمهورية العربية السورية).
- درس في جامعات دمشق والقاهرة وباريس وحصل على الدكتوراه في علم النفس من جامعة القاهرة عام 1961.
- عمل مدرساً للفسلفة في حمص، ثم عميداً لكلية التربية بجامعة دمشق فأستاذاً للفلسفة، فوزيراً للمعارف، ثم سفيراً للجمهورية العربية السورية في يوغسلافيا، ومصر، وأسبانيا، ومندوباً لـ "سوريا" في جامعة الدولة العربية.
- له عدة أبحاث نظرية ودراسات فلسفية نفسية حول علاقة علم النفس بالأدب والتعليم.
- ترجم الأعمال الكاملة لدوستويفسكي ومؤلفات لليف تولستوي وبوشكين وليرمنتوف وتورجينيف وإيفو أندريتش وآخرين.
- توفي عام 1976، ومنح جائزة "لوتس" بعد المات (1978).